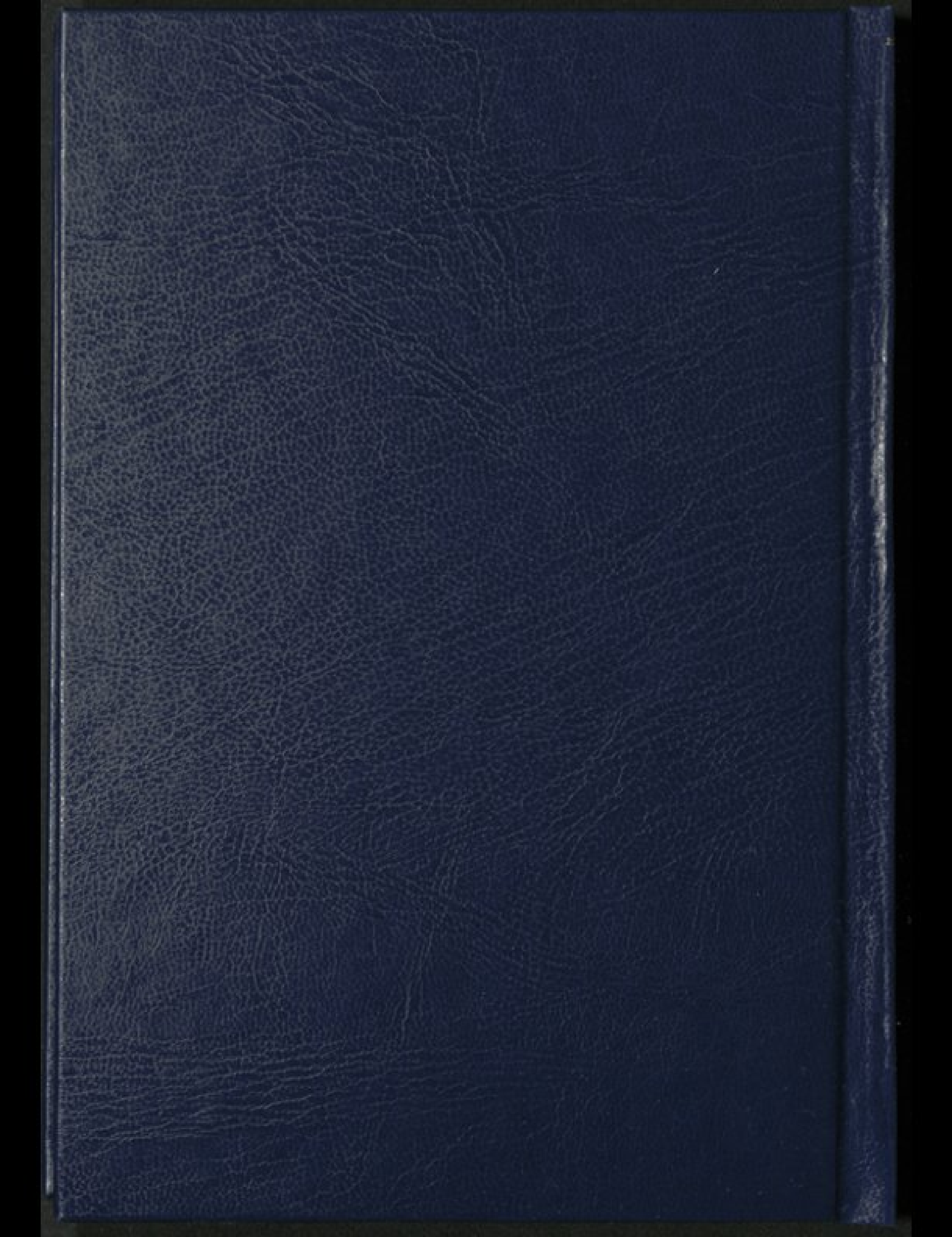



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY



الى استاذي الدكتور فيليب حتي
مع التحية والاخلاص
قسطنطين زريق

١٥ اذار ١٩٣٩



قسطنطين زريق

# الوعي القومي

## نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي

منشورات دار المكشوف

بيروت . ١٩٣٩

طبع من هذا الكتاب الف وخمسمئة نسخة

## تمهيد

رقد العرب بعد نهضتهم الكبرى في العصور الوسطى قروناً طويلة نسيهم فيها العالم ونسوا انفسهم ، واستكانوا للظلم والجهل والفقر المادي والروحي ، تجرهم الحياة عضواً مشلولا في الجسم الانساني . حتى اذا بدت طلائع القرن الماضي ، حاملة معها نسمات روح جديدة ، تهب بها عليهم حضارة الغرب الحديثة ، اخذوا ينتعشون تدريجاً ، ويفتحون عيونهم — بثقل وتباطؤ في بادئ الامر ثم بهمة وسرعة متزايدتين — لاستقبال نور الحياة المشرقة عليهم ، المهيبة بهم الى النهضة والعمل لاحتلال المنزلة اللائقة بهم بين الامم . بدأت هذه الروح الجديدة تهب عليهم نسمات خفيفة رقيقة ، ثم اخذت تتتابع وتقوى بتقدم القرن الماضي والسنين الاولى من القرن الحاضر ، حتى كانت الحرب العظمى فاذا بتلك النسمات قد اصبحت ريحاً شديدة ، بل عاصفة هوجاء تتلاعب بالامة العربية ، وتقذف بها ذات اليمين وذات الشمال .

وما زال العرب اليوم يعيشون في وسط هذه العاصفة ، وفي ملتقى التيارات المنصبة عليهم من كل صوب وناحية ، فاذا نحن

تقصينا الأثر البارز لهذه القوى العظيمة المتفاعلة وايامم وجدناه في الهبة القومية التي تدفعهم الى استكشاف نفسهم ، وتحرير افرادهم ومجموعهم ، واستعادة سالف مجدهم ، واثبات مكانتهم في المجتمع البشري . وما من احد يلمس الحياة العربية الحاضرة الا ويشعر بهذه الهبة المرتفعة من صدور العرب في شتى اقطارهم ، المبشرة بنهضة جديدة ، يرجى لها ما كان لسابقتها من عز منيع ، ومجد رفيع ، ومساهمة ذات شأن في تقدم التمدن الانساني .

على ان هذا الانبعاث القومي الجديد ما زال في طور الهبوب والفوران . يقترب منه المرء فيشعر بقوته ، ويُلفح بناره ، ويلمس بيده الحياة المتوثبة التي تجيش فيه . ومن حق كل عربي ان يزهو به ، ويملأ صدره أملا بما سيؤول اليه ، واستبشاراً بما يحمل في طياته من خير عميم لامته وللانسانية جمعاء . غير انه من الخطر ان يبقى في هذا الطور ، وان يتدفق كله عاطفة متحفزة وشعوراً صارخا . بل يجب ان يتقدم الى طور التفكير الهادئ المنظم ، ويشرق بنور العلم المدرك الواعي ، ويخرج عقيدة قومية متينة الاساس ، مرصوصة البنيان ، تستقر في النفس فتملأها قوة وعزما وتبعث فيها ايماناً يزحزح الجبال .

اجل ! ليس من امل للنهضة القومية العربية ما لم تكن مستمدة من « فلسفة » قومية تصور روحها ، وتحدد اتجاهها ، وتنصب لها

الاهداف ، وتبين لها السبل والوسائل . اقول هـذا وانا اعلم انني سأثير عند كثير من ابناء الامة ــ بل بين العاملين في الحقل القومي انفسهم ــ ما يرسم الابتسام ، بل السخرية ، على الوجوه ، ويبعث الشك والريبة في النفوس . فالوقت عندهم وقت جد وجهـاد ، لا مجال فيه لفلسفة ونظريات ، وحالة الامة تدعو الى عمل وكفاح ، لا الى بحث وكلام . وما ضرَّ العربَ ــ في نظرهم ــ مثل المناقشة والمجادلة الكلامية ، وما نفع الغرب مثل التشمير عن ساعد الجد والنهضة للعمل والانتاج .

فلابادر الى تطمين من تخامرهم هذه الشكوك اني ابعد النـاس عن التقليل من قيمة الجهاد والكفاح في شتى نواحي الحياة ، واني اسرعهم للدعوة الى تأثر الغرب في العمـل المنتج والهمة الفعالة . ولكنني متيقن ، بالوقت نفسه ، من ان ذلك الجهـاد لا يبلغ غايته الا اذا كان مدعوماً بفكر واضح نيّر ، وان هذا العمل لا ينتج حقاً الا اذا صدر عن رأي بصير وعقـل مدبر . واقرر ، غير متردد ولا متحفظ ، ان ما من نهضة قومية تحررية قامت في العـالم الا وسبقتها او لازمتها نهضة فكرية مهدت لها الطريق ، ورسمت امامهـا الغاية ، واوضحت لهـا المعالم والحدود ، وان المناقشة والمجادلة ما ضرت العرب في عصور غفلتهم الا لانهـا كانت بعيدة عن حياتهم ، غريبة

عن الجو الذي كانوا يضطربون فيه ، وان الجد والعمل ما نفع الغرب الا لانه بني على الفكر المنظم ، والعقيدة الواضحة ، والفلسفة الشاملة .

فاذا اردنا لهذه النهضة القومية العربية ان تستكمل شروطها ، وتؤتي ثمارها ، لم يكن لنا غنى عن ثلاث خطى رئيسية يترتب علينا اتخاذها بحزم ونشاط : اولها بناء الاساس الفكري الذي تقوم عليه هذه النهضة القومية ، وذلك بدرس غاياتها ووسائلها ، وتحديد معنى الامة والقومية ، واثبات خصائص الامة العربية ومميزاتها ، واظهار مقامها الفريد بين الامم والنصيب الذي كان لها في الماضي والذي يرجى لها في المستقبل في تقدم التمدن والحضارة البشرية : او ، بكلمة اخرى ، انشاء « فلسفة قومية » شاملة واضحة منظمة .
ولكم تضطرب نفسي حين يطلب مني احد المهتمين بالقضية العربية من كتاب الغرب ومفكريه ان اطلعه على « نظرية » القومية العربية ، او ان اضع بيده ما يقوده الى المعين الفكري الذي تنبع منه ، فاجدني فارغا الا من بضع مقالات وابحاث قليلة الغنى ضيقة المدى ، فافكر في التبعة العظمى الواقعة على عواتق كتاب العرب وقادة الرأي فيهم ، واتساءل عما اذا كانوا يقومون حقاً بواجبهم ويؤدون مهمتهم .

اما الخطوة الثانية فهي ان تعصر هـذه الفلسفة في فكرة مقطرة نقية صافية يتشربها ابناء الامة وتتحد بعاطفتهم المتوثبـة وشعورهم الفياض ، فيحصل من هذا المزيج المبـارك « عقيدة » قومية ، تسير بافراد العرب وجمـاعاتهم قدماً الى الاهداف الصحيحة ، وتملأ نفوسهم عزما واملا ، وتشيع فيها معنى وسمواً وجمالا .

واخـيراً يتخـذ العاملون في الحقـل القومي الخطوة الثـالثة ، فيجاهدون لـ « تنظيم » الامة العربية ، وضبط نوازعها ، واخضاع شهواتها وارادتها للارادة الوحيدة المنبعثة من « العقيدة » الواحدة ، فيدرب رجال الامـة ونساؤها على العمل المنظم الصادر عن الفكر المنظم والمكمل له .

على هذه الاركان الثلاثة : الفلسفة القومية ، والعقيدة القومية ، والتنظيم ، تقوم كل نهضة قومية صحيحة ، واليهـا يجب ان يوجـه العرب جهودهم في هـذا الدور التأسيسي من حياتهم الجـديدة ، لتكون نهضتهم قوية البنيان ، ثابتة على الزمان .

*

ولا غرو في ان الخطوتين الاوليين على الاقل هما من واجب مفكري الامة ، وقادة النظر والبحث فيها . فمنهم ــ لا من رجال التنفيذ المتوسطين ميدان العمل ــ يطلب هذا النوع من التفكير

الايضاحي المنظم الذي تبينا ما له من مقام في النهضة القومية الصحيحة .

ازاء هذا الواجب الجلل يحق لنا ان نتساءل : ماذا عمل رجال الفكر العربي ، والى اي حد بلغوا في القيام بتبعتهم الخطيرة ؟ لا اخالني مشتطاً في الحكم او مغالياً اذا قلت انهم لم يأتوا من هذا القبيل بما يغني او يفيد ، بل ان كثرتهم لم تنتبه بعد الى هذه المهمة الدقيقة التي تنتظرها . ولأكتفِ بدليل واحد على ما اقول :

في شهر نيسان الماضي اصدرت ادارة « الهلال » عدداً ممتازاً موضوعه : « العرب والاسلام » حرره كبار كتاب العرب وادبائهم ، وقادة السياسة والاقتصاد والاجتماع فيهم . على ان من يطالع المقالات الوافرة التي تضمنها هذا العدد الفخم ، يلاحظ فوراً الفوضى في التفكير القومي التي يتخبط فيها زعماء الرأي بيننا . فليس ثمة تمييز واضح بين « الامة العربية » و « الامم العربية » ، وبين « العروبة » و « الشرق » و « الاسلام » ، وليس ثمة فهم نافذ للنهضة القومية ، او برنامج منظم لوسائل بعثها واحيائها . وانك لتقرأ المقالة الواحدة فتصدمك المتناقضات النافرة التي تنكرها ابسط قوانين التفكير القومي الصحيح .

اسمع ، مثلا ، ما يذكره الدكتور طه حسين في مقاله : « في

العقل العربي الحديث » ( ص ٤٩ ) حين يحاول التمييز بين العقل العربي القديم والعقل العربي الحديث في النظر الى الوحدة العربية :

« وربما كان من الامثلة الظريفة الطريفة التي تبين الفرق بين العقل العربي القديم ، والعقل العربي الحديث في هذا العصر الذي نعيش فيه مسألة الوحدة العربية او الوحدة الاسلامية التي يكثر فيها الكلام وتشتد فيها الخصومة ، فما اظن ان الناس يختلفون في ان هذه الوحدة نافعة للشعوب العربية وللشعوب الاسلامية اشد النفع ، وفي ان مصالحهم تدعوهم اليها وتدفعهم اليها دفعاً ، ولكنهم مع ذلك يختلفون ويختصمون لا لشيء الا لانهم يختلفون في تصور هذه الوحدة حسب ما يتاح لهم من العقل القديم او العقل الحديث . فاما اصحاب القديم فيفهمون هذه الوحدة كما يفهمها القدماء في ظل سلطان عام شامل يبسط عليها جناحيه ويحوطها بقوته وبأسه ... واما اصحاب العقل الحديث فيفهمون هذه الوحدة على نحو ما تفهم عليه في البلاد المتحضرة بالحضارات الحديثة الاوربية ، يفهمونها على انها لا تنفع ولا تفيد الا اذا احتفظت بالقوميات والشخصيات الوطنية والحريات الكاملة لاعضائها والسيادة العامة لهم في حياتهم الداخلية والخارجية وقامت على الحلف الذي لا يفني امة في امة ولا يخضع شعباً لشعب ، وانما يمكن الامم من ان تتعاون على اساس ما يكون

بين الانداد من المساواة » . ألست ترى هذا الالتباس المرتبك بين « الوحدة العربية » و « الوحدة الاسلامية » ، وهذا الاضطراب الشديد في فهم « الوحدة » و « الحلف » والتمييز بينهما ، فكيف يمكن « وحدة » ان تحتفظ بـ « القوميات » وتقوم على « الحلف » ، في حين انها تتناول جوهر الامة الواحدة وتنبعث من مميزاتها الخاصة وقوميتها الثابتة ، ولا تكتفي بروابط « الحلف » الخاضعة في الاكثر لتقلبات الاحداث والمصالح والظروف السياسية وسواها ؟

ومثل هذا الارتباك — بل اشد منه — في مقالات كثيرة في هذا العدد . وقد يخفف عند بعضنا من خطورة هذا الامر ، ان معظم كتاب هذا العدد من رجال العهد « المخضرم » الذين لا ينتظر منهم تفكير قومي خالص ، وان المجلة تصدر من مصر حيث الفوضى في النظر الى النهضة القومية العربية ومقام مصر منها بصفة خاصة . ولكن تبقى ، على كل حال ، الحقيقة المرة الاليمة ان من يحتل المقاعد الامامية في حياتنا الفكرية بعيدون عن اهم واجب عليهم في اخطر دور تمر فيه امتهم .

ولست انكر ان فئة قليلة من قادة الشباب العربي — في الشام والعراق خاصة — اخذت تنحو النحو المنشود ، وتحاول ان تفكر تفكيراً قومياً سليماً مبنياً على العلم الصحيح وعلى اختبارات الامم الناهضة ، وان بعضها بدأ يعبر عن هذا التفكير ويسعى لنشره ،

ولكن هذه الجهود لا تزال في مراحلها الاولى : فالعدد قليل ، والخطى بطيئة حائرة ، ووسائل الجمع والتنظيم التي تؤمن صدور تفكير موحد تكاد تكون في حكم العدم . اما اكثر الشباب « المثقف » فهو منصرف عن معالجة القضايا الحيوية التي تتمخض بها النهضة القومية الى النتاج الادبي الذي اقلُّ ما يقال فيه انه — في كثرته الغالبة — بعيد عن حاجات الامة الحقيقية ، لا يمس جوهر حياتها الحاضرة او كيانها المقبل . أين نحن من البحث الخصيب في مواردنا الطبيعية ومرافقنا الاقتصادية وطرق بعثها واستغلالها الى ما يكفل لنا عيشاً مكفياً وكياناً منيعاً ؟ أين نحن من التفكير الاجتماعي الرصين الذي يعالج ازمتنا الاخلاقية وتدني مستوانا الروحي في الاسرة والمدرسة والدولة بل في جميع منظمات مجتمعنا ؟ بل أين نحن من النظرة الادبية الصائبة التي تدرك مقام الادب الصحيح في نهضة الامم — الادب المستمد من الحياة ، المكيف للحياة — فتتجه اليه ، وتدفع صاحبها الى مجاهدة نفسه لانتاجه وتلقيح ابناء امته به ؟ وبكلمة وجيزة ، أين نحن من التفكير المنظم في اي من الاسس الحقيقية التي تشاد عليها النهضات القومية الثابتة ؟

من اجل هذا ، كنت ولا ازال ادعو الى وجوب اخذ مفكرينا بهذا النوع من البحث والتفكير ، مع درس نهضات الامم الاخرى

وما رسمت لنفسها من غايات وما نهجت من سبل ، والنظر في مزايا الامة العربيـة وسجاياها الخاصة ، لكي يُستخرج من هـذا كلـه الاساس الفلسفي الذي عليه تشاد العقيدة القومية العربية . و كنت ولا ازال ادعو القلة من رجالنا المفكرة تفكيراً قومياً صحيحاً الى وجوب ضم جهودها لانشاء هذه العقيدة القومية ودفعها الى الامة صريحة واضحة منظمة لتتغذى بها نفوسها وتتوحد اهدافها ومراميها. بهذا ــ وبهذا وحده ــ يكتسب تفكيرنا وعملنا الاستقرار المنشود، ومنه ــ دون غيره ــ نستمد النور الذي يهدينا سواء السبيل .

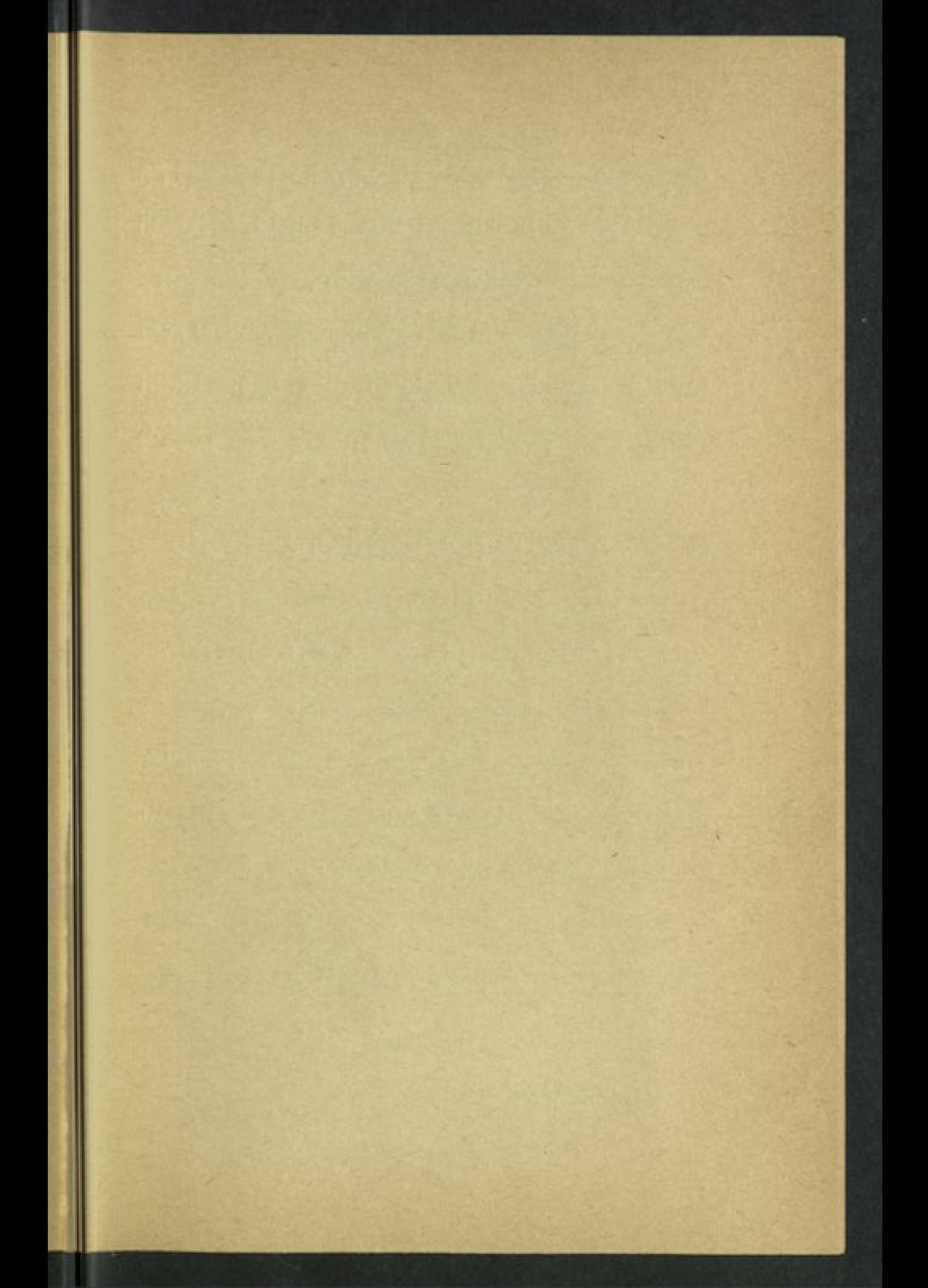
*

ليس هذا الكتاب الذي اضعه الآن بين ايدي القراء بحثاً منظما في العقيدة القومية على النحو الذي وصفت . فليس لي من استعدادي الحاضر ما يؤهلني لمثل هذه المهمة الخطيرة ، ولا من فراغ البال وسعة الوقت ما يتطلبه هذا العمل الجليل . وانما هي « نظرات » القيتها على حياتنا القومية ، ثم لملمتها وجمعتها بين دفتي كتاب ، آملا ان يكون منها بعض النفع في العمل التوجيهي المفروض على جميع رجال الفكر في الامـة في الوقت الحـاضر . وهي ــ وان كانت فصولا مستقلة وضعت في مناسبات واحوال مختلفة ــ تؤلف وحدة فكرية روحية بما تصدر عنه من عقيدة واحدة تشيع فيها جميعا . تتناول الفصول الستة الاولى معنى القومية ، ومقام المرأة فيها ، وعلاقتها بـ « التربية» ،

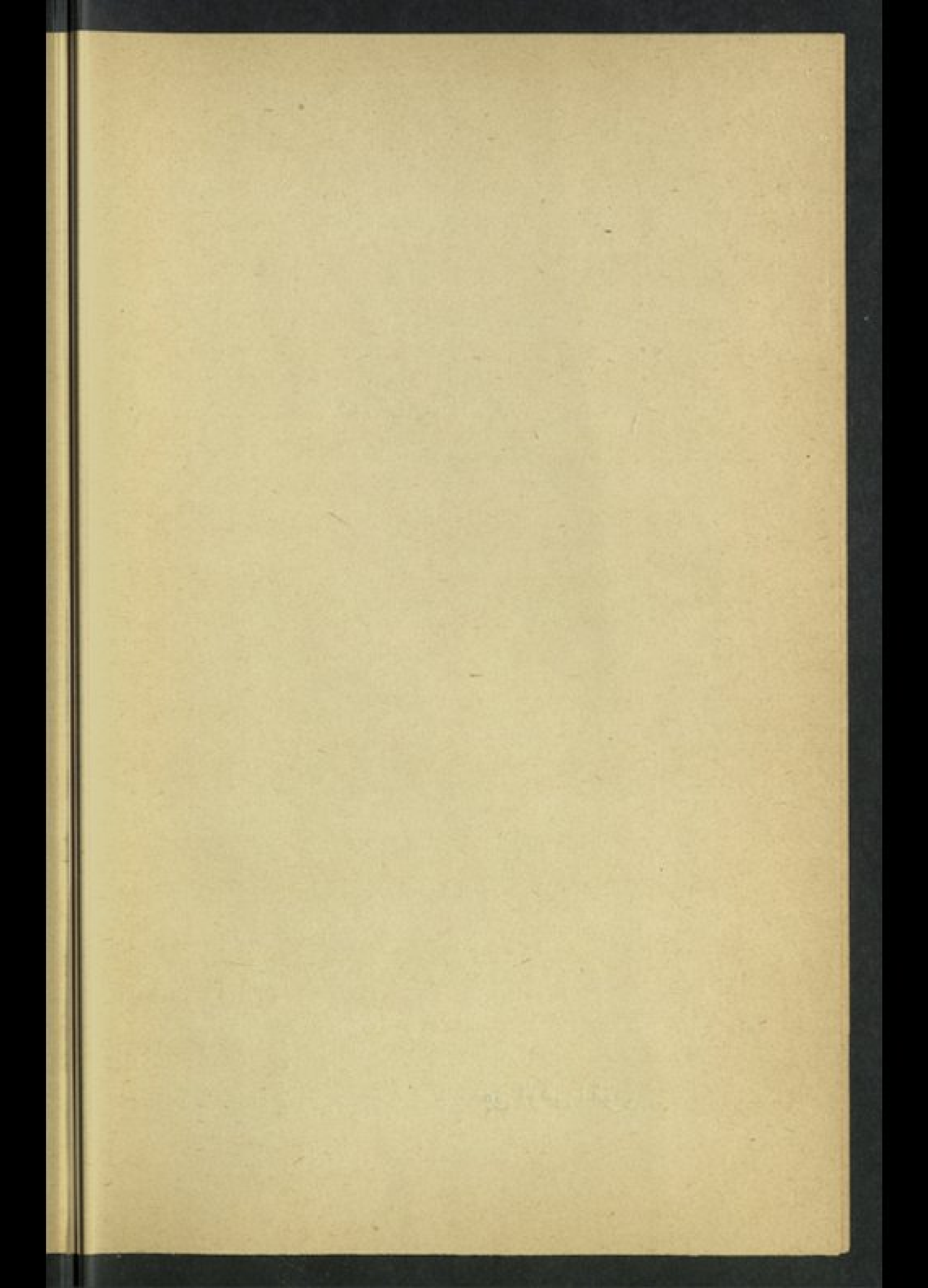
و « الجنس » ، و « الدين » ، و « العمل الاجتماعي » . وتبحث الفصول الخمسة التالية في مظاهر من حياتنا الثقافية مشيرة الى بعض نواحي النقص فيها ، ملمحة الى المثل الثقافية العليا التي يجب ان نتطلع اليها . ويكشف الفصلان الاخيران عن بعض المنابع الروحية التي تغذي النهضة القومية ، والتي لا غنى لهذه النهضة عن مائها النمير واكسيرها المحيي اذا اريد لها العز والمجد والسمو ، بل مجرد البقاء .

لئن كان هذا الكتاب بعيداً عن البحث المنظم الشامل الذي تتفتح عنه العقيدة القومية العربية ، فلقد اقدمت على نشره — على انه خطوة اولية متواضعة — معتمداً في ذلك على امرين : اولا املي بان يكون منه ما يبعث على التفكير الصحيح في القضية القومية وما يساعد على بلوغ ذلك النسق من البحث القومي الذي وصفته في هذه المقدمة ، وثانياً شعوري بان فصوله كتبت تحت ضغط التبعة التي يجب على كل حامل قلم تحملها تجاه امته في هذا الظرف الدقيق من حياتها . وحسبي منه ان يحقق ذلك الامل ، وان يكون في هذا الشعور بالتبعة الفكرية الذي يسري في طياته ، ما يشفع بما فيه من نقص او خلل .

قسطنطين زريق



# معنى الوعي القومي



لم يبق خافياً على كل من ينظر في حالة الامـة العربيـة انها تجتاز اليوم دوراً من اشد ادوار حياتها دقـة واعظمهـا خطراً ، وانها تتخبط في فوضى فكرية بعيدة المدى بليغة الأثر . فكلنا يشعر بالتيارات المختلفة التي تتقاذفنا ، وبالنزعات المتباينة التي تتجاذب نواحي حياتنا ، وكلنا يحس بهذا الهيجان الفكري والعاطفي الذي طغى علينـا ، والذي وزعنا فرقا متنازعـة واحزابا متناحرة لا تعرف لهـا هـدفا بيناً او غاية صريحة .

في مثل هذا الموقف الدقيق يترتب على مفكري الأمة وقادة نفوسها ان يواجهوا هـذه الفوضى بعقـل هادئ وقلب مطمئن ويعمدوا الى تحليل عواملها والكشف عن جذورهـا ومصادرها الخفية ، وان يتطلعوا من خلال امواجها المتلاطمة الى الافق البعيد ليتبينوا قبس نور يهتدون به وشاطئاً اميناً يقودون الأمة اليه . ذلك هو واجبهم وتلك رسالتهم ، فان لم يقوموا بالواجب ولم يؤدوا الرسالة ، بل ألهتهم عنها الاطماع الدنية والغايات الصغرى ، جنوا على امتهم جناية لا تغتفر ،

وسجل عليهم التاريخ تقصيراً أي تقصير .

ويتبين لي ان العامل الأكبر في هـذه الفوضى الصاخبة التي تجتاحنا هو فقداننا الشعور القومي الصحيح الذي يوحد جهودنا ، وينظم قوانا الروحيـة ، ويفيض على نفوسنا صفـاء وركوناً واطمئناناً . ولقـد يعجب البعض من هـذا القول ، اذ يلتفت حواليه فيرى شؤون الامـة العامة على كل لسـان يتحدث بها الكبير والصغير والغني والفقير ، ويسمع اسماء قادة الامة وزعمائهـا تتردد في المجالس الخاصة والمحافل العـامة ، ويلمس في جو البلاد اهتزازات وتيارات مفعمة بمظاهر القوة والحياة . أفنتكر بعد هذا كله الشعور القومي ، وسريانه في قلوب الامة ونفوسها ؟

الحق ان كثيراً من هـذا الذي نرى ونسمع ونلمس لا يبلغ قرارة النفس ، ولا يكيف صورة الحياة . فاذا استثنينا من تدفعه الى هـذا الاهتمام في الشؤون العامة غايات واطماع دنيوية ــ وهم ، كما يعلم الجميع ، كثيرون ــ وجـدنا ان القلة الباقية موزعة بين فريق اكبر يتخذ المسائل الوطنية والقومية ملهاة يملأ بها فراغه ويسري بها عن نفسه عندما يفرغ من عمله الخاص فيجلس الى صحبـه ويبادلهم الاحاديث

الجدية او غير الجدية يتناول بها هذا او ذاك من الشخصيات ، او هذه او تلك من مشاكل البلاد ويوهم نفسه وصحبه انه يؤدي بذلك واجبه الوطني ويلتحق بصفوف العاملين في حقل القومية الصحيحة ، وبين فريق اصغر تلتهب في نفسه عاطفة وطنية صادقة ، لكن هذه العاطفة لم تخرج من حيز الشعور الى حيز العقل ، فتراه مدفوعا بشتى الانفعالات النفسية والتأثرات العاطفية تقذف به ذات اليمين وذات اليسار ، دون أمن او استقرار .

وغني عن البيان ان هؤلاء جميعاً ، بالرغم مما يحدثون من جلبة وضجيج ، لا يؤلفون الا قسما صغيراً من الامة . اما السواد الاكبر فلا يتحسس بشيء من هذا ، وان رفع صوته او مد يده فعن دافع خارجي وقتي لا عن قوة داخلية دائمة . وغني عن البيان ايضاً ان هذه العوامل المختلفة التي تحرك من يتحرك منا — سواء أكانت المصلحة الشخصية ، أم التلهي الفارغ الذي نملأ به حياة افرغ منه ، أم العاطفة الوطنية الجامحة — لا يمكن ان تكوّن الاساس المتين الذي يبنى عليه كيان الامة ويشاد صرحها الجديد . ولا يمكننا ان نقيم هذا الاساس الا اذا خلصت عاطفتنا الوطنية من ادران

المادة ، وارتفعت الى حيز العقل ، فاصبحت شعوراً يدعمه الفكر ، او بالأحرى فكراً يذكيه الشعور ، وسرت في جوانب النفس كلها ، فلأنها « وعياً » قومياً .

هذا الوعي القومي الذي يعرف ما يريد ويسير اليه بعزم صادق مطمئن ، الذي يدري من اين أتى والى اين يسير ، الذي لا يسمح لأية مصلحة خاصة او عاطفة آنية ان تحيد به عن هدفه الأوحد وغايته القصوى ، هذا الشعور الذي اصبح فكراً ، وهذا الفكر الذي اكتسب بالشعور حياة ، هذا الوعي القومي العاقل المتنبه لم تعمر به بعد الا انفس قليلة في هذه الامة العربية ، ولم يتصل تياره الا بفئة ضئيلة متفرقة ، وهو ، مع ذلك ، منبع كل نهضة قومية ، ولن تستطيع امة ان تحقق آمالها وتبلغ غاياتها الا عندما يسود نفوس ابنائها — او على الاقل نفوس القادة منهم — ويشيع في جوانبها فهماً ودراية ونوراً .

*

فلنتساءل اذن : على ماذا يقوم هذا الوعي القومي ، ومن اي المصادر يفيض ؟

يقوم الوعي القومي اولا على معرفة ماضي الامة معرفة

صحيحة ، وفهم العوامل الطبيعية والتاريخية التي كونتها حتى جعلتها في حالتها الحاضرة ، والكشف عن مصادر قواها الروحية الخاصة التي تمتاز بها عن غيرها من الامم . فالعربي الواعي قومياً يعرف من اين اتى ، وكيف تحدرت امته ، ومن اي الجذور نبتت حياته الحاضرة . يضع يده على اصل الجنس العربي ، ويتابعه في شيوعه من الجزيرة الى ما حولها من البلدان ، ويسايره في سيادته على الاجناس الاخرى وامتزاجه بها ، وفي ما تكوّن من هذا الامتزاج من امة مختلطة الدم والجنس ، موحدة في ما هو اهم من هذا كثيراً في الارتباط القومي ، الا وهو : اللغة ، والتقاليد ، والجهاد الماضي ، والمصالح الحاضرة والمقبلة . وهو يعرف — مع ذلك — ما يقوله العلماء الحديثون عن معنى « الجنس »، وعن مقدار ما للوراثة من جهة والمحيط من جهة اخرى من أثر في تكوينه ، وعن علاقته بالقومية ، وعن الحركات السياسية والمذاهب الاجتماعية والفكرية التي قامت في الشرق والغرب على اساسه .

وينظر ، بعد الجنس ، في اللغة ، فيعرف من اين نشأت وكيف انتشرت ويفهم ميزاتها على غيرها من اللغات ، والقوى

الخاصة التي جعلتها تسود سيادة تامة على هذه الاقطار الشاسعة. فلكل لغة نبوغ خاص وميزات تتفرد بها عن غيرها من اللغات . واللغة العربية ، من بين اللغات جميعاً ، قد اظهرت حيوية بالغة في دقة تنظيمها ، وفي سعة انتشارها ، وفي مرونتها التي جعلتها اداة صالحة لنقل شتى العلوم والآداب . وهذا كله مما يهيب بنا الى استكشاف سر هذه الحيوية وفهم القوى الخاصة التي تمثلها لغتنا كي نستغل هذه القوى في تنظيم حاضرنا وبناء مستقبلنا .

غير ان اللغة ليست سوى مظهر من مظاهر الثقافة . والوعي القومي يتطلب ان يكون لنا فهم صحيح لجوهر الثقافة العربية : فنعرف البذور التي تكونت منها ، والمظاهر المختلفة — من علم وادب وفن — التي تجلت فيها ، والخصائص التي امتازت بها ، والرسالة التي ادتها الى العالم ، والدور الذي لعبته في تكوين التمدن الحديث . وليس من شك في غنى الثقافة العربية ، وشمولها ، وتشعب مناحيها . فلا بد ان تكون وراء هذه الميزات قوى روحية خاصة ، ومنابع حياة فياضة ، وقد وجب علينا ان نكشف عنها ونسبر غورها لندرك حقيقة هذه الثقافة التي ورثناها عن السلف ، والتي

تكوّن اليوم القسم الاهم والابرز من شخصيتنا .

واخيراً يتطلب الوعي القومي الملتفت الى الماضي ان نلمس روح تاريخنا ، ونتصل بالعوامل التي كونت هذا التاريخ . فلقد جاهد العرب في ماضيهم جهاداً حسناً في شتى نواحي الحياة ، ففتحوا آفاقا واسعة في ميادين السياسة والاقتصاد والعلم ، ثم عادوا فانكمشوا على انفسهم وتقلص ظلهم . وانه لمن الخطورة بمكان ان نعرف حقيقة العوامل التي تأثروا بها في الحالتين جميعاً . ويهمنا بصورة خاصة ان ندرك القوى الداخلية القائضة في نفوس العرب وقلوبهم وارواحهم ، لان الظروف والاحوال الخارجية — على اهميتها في تكييف التاريخ وتسييره — ليست شيئاً ازاء القوى الداخلية التي تجيش في صدور الامة . فلكم من امة خلناها تنهار بغزوة شعب غريب كانت في الواقع قد تفسخت داخلياً وتهدمت في الباطن ، قبل ان تتهدم ظاهراً ، ولكم من امة اخرى احاطت بها شتى الاحداث والكوارث ، فلم تطفيء روحها ولم تمح شخصيتها .

وصفوة القول ان الامة العربية لها شخصية خاصة تنفرد بها عما سواها من الامم : شخصية مؤلفة من عناصر مختلفة

— اهمها اللغة ، والثقافة ، والتاريخ المشترك — قد تحدرت جميعها من اصول الماضي . فاول واجب قومي يترتب علينا هو فهم هذه العناصر فهماً يكشف لنا عن روحها ويوضح لنا جوهرها كي نعرف حقاً من نحن ، وكيف تكوّنا .

ومن الواضح ان هذا الوعي القومي الذي اصف بعيد كل البعد عما نردده كثيراً من التغني بمآثر السلف والاشادة بفضل الاجداد ، وعما يتفجر من صدورنا من الاعتزاز العاطفي بالماضي المجيد والتاريخ الزاهر ، وانما هو درجة ابعد من هذا الاعتزاز او ذاك التغني لانه قد تخطى حدود الشعور والعاطفة ودخل حيز الفهم والمعرفة . ولست اقصد من هذا ان اضع من قدر العاطفة والشعور في الجهاد القومي ، ولكنني لست اراهما كافيين لبلوغ الغاية التي نرجو ، الا اذا اقترنا بالادراك الواسع والفهم الدقيق . فالافرنسي الواعي قومياً يعرف بوضوح ودقة مزايا لغته ونبوغها الخاص ومقامها بين غيرها من اللغات ، ومثله الالماني الذي ينشر امامك خصائص ثقافته والايادي التي لها على غيرها من الثقافات ، والانكليزي الذي يستعرض لك تاريخ امته فيشير ، بفهم وادراك ، الى الدور العظيم الذي لعبته والى الروح التي تجلت فيها في مختلف

الادوار . اما نحن العرب ، فكم بيننا من يعرف معرفة صحيحة من نحن ، وكيف تكونا ، وما هي حقيقة شخصيتنا وجوهر روحنا ؟ كم بيننا ، بكلمة اخرى ، من تفتح في نفسه الوعي القومي الملتفت الى الماضي ؟

*

على ان ماضي الامة وتاريخها الغابر ليسا في الواقع الا الجذور التي نبتت منها غرسة الحاضر ، واذا كان من المهم ان نلمس الروح المتغلغلة فيهما فلكي ندرك ادراكا صحيحاً ما تولد عن هذه الروح من مظاهر حياتنا الحديثة . فالوعي القومي الكامل يتطلب منا اذن ان ننفذ بابصارنا وراء الحوادث الآنية التي نتخبط فيها والمظاهر السطحية التي تستهوينا الى لب حياتنا الحاضرة وجوهرها ، وان نفهم حقيقة معناها واتجاه سيرها . ولما كانت هذه الحياة الحاضرة وليدة عاملين رئيسيين يتفاعلان فيما بينهما تفاعلا شديداً هما : الشخصية العربية كما تكونت عن محيط هذه البلاد الطبيعي وميراثها الاجتماعي والثقافي ، والحضارة الغربية السائدة على المجتمع الحديث فقد وجب ان يحيط ادراكنا بكل منهما احاطة كاملة صحيحة .

اما الشخصية الداخلية للامة العربية فقلَّ بيننا من وقف

على كنهها وقدّرها حق قدرها ، وندر منا من وضع يده من جهة على منابع قوتها ومصادر حيويتها ، ومن احسّ من جهة اخرى بمواطن ضعفها وعوامل تفككها وتراخيها . ففي هذه الملايين من البشر الذين يؤلفون الامة العربية قوى جسدية وعقلية وروحية لا يستهان بها قد اورثهم اياها محيطهم وتاريخهم . ولا تزال اكثر هذه القوى في حالة الكمون ، لم تظهر بعد ولم تتحقق قابلياتها ، بل هي مدخرة في الاجسام الصحيحة والعقول السليمة والارواح الخالصة . فعلينا ان ننفذ الى منابع هذه القوى حتى نستطيع استغلالها في خلق حياتنا الجديدة . كم في عقول الشبيبة العربية مثلا من ذكاء فطري يبقى مخزوناً لا يستفيد ولا يفيد لانعدام وسائل بعثه في محيطنا ، او يهدر على التافه من الامور فيذهب ضياعا دون ان يكون له اثر في البناء القومي ، حتى اذا اتيح له ان يتعرض لمؤثرات الحياة الحديثة في الغرب تفتحت مواهبه وتجلت قواه في هذا الانتاج الباهر الذي ولّده المهاجرون من العرب مثلا في مختلف ميادين السياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والثقافة . وكم في صدور افراد هذه الامة من ايمان وطهر واخلاص لا تجد لنفسها مجرى سامياً نبيلا تتدفق

فيه ، فتفيض على المعتقدات البالية والخرافات السقيمة وتحييها في النفوس الظمأى ، او تضيع بين احجار المادة وصخورها وتختلط بادرانها وانجاسها فينقلب جمالها قبحاً ونفعها ضرراً واثماً . هذا قليل من كثير من هذه القوى المدخرة في شخصيتنا ، والتي يترتب علينا قدرها وقيامها ، والايمان بها ايماناً مبنياً على الدرس العميق الواضح — لا على مجرد الشعور السطحي الغامض — لان فيها املنا ، وعليها اعتمادنا ، واليها مردنا ومصيرنا .

كذلك يفرض علينا الوعي القومي الرشيد ان نحس احساس فهم وادراك بعوامل الضعف في الشخصية العربية الحاضرة وبالمشاكل العديدة المتشبكة المتولدة عنها ، وان نجابه هذه العوامل والمشاكل مجابهة واقعية صريحة لا عوج فيها ولا التواء . ففي البلاد العربية جهل متفش وفقر سار ، وتفسخ عقلي واخلاقي لا يعلم الا الله حده ومداه . وفيها مشاكل اقتصادية واجتماعية وروحية متشابكة النواحي مستعصية الحل . فليس من الخير في شيء ان نهرب من هذه الامراض والمشاكل الى عالم الخيال الفارغ ، ونخدع انفسنا بالظاهر من الامور خوفا من مجابهة الباطن . ليس من الخير في شيء ان

نشيح بوجهنا عن الجهل والتعصب حين نعلم علماً اكيداً في صميم نفوسنا ما يغشى محيطنا من جهل ذريع وتعصب مخيف . وليس من الخير في شيء ان تبهرنا انوار الجهاد الوطني فتعمي بصائرنا عما يتفشى في مجموعنا من جراثيم المادة القتالة والاطماع المفسدة ، او ان تملأ آذاننا الاصوات الداعية الى التضامن والاتحاد فتصمها عن سماع صرير التمزق وقرقعة الانقسام . لا ! وانما الخير كل الخير ان نواجه هذه المشاكل مواجهة جرأة وصراحة ، وان نعرف قدرها ونقيس مداها ، كي نعد العدة الوافية لحلها والتغلب عليها . ونحن اذا فعلنا ذلك ، أمكننا لا ان نزيل هذه العقبات الجسام من طريقنا فحسب ، بل ان نجعل منها مصادر حياة جديدة تبعثها في نفوسنا ، ونشاط متحفز تحييه في قلوبنا فينقلب ضعفنا المستمد منها قوة ، وتراخينا الناشىء عنها تضامناً واتحاداً . وجملة القول ان الوعي القومي يزن الامور بموازينها الصحيحة ، ويضعها في مواضعها المختصة بها ، وينظر الى كل ما في شخصية الامة الداخلية من منابع قوة او مواطن ضعف نظرة واقعية يخترق بها الى صميمها ويجلو حقيقتها .

اما العامل الثاني الذي تنشأ عن تفاعله وشخصيتنا الداخلية

الحياة العربية الحديثة فهو : « الغرب » بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من قوى وعوامل غزيرة متشابكة .

ولست اعني بالغرب أولئك الاقوام الذين يسكنون اوروبا واميركا فحسب ، بل جميع الشعوب الذين خضعوا لهذه الحضارة الحديثة التي نشأت في الغرب وتأثروا بها تأثراً عميقاً واسعاً : فاليابان الشرقية اقرب فعلا الى اوروبا منها الى اكثر مناطق آسيا . وما من احد ينكر ان العوامل والقوى التي يمثلها الغرب هي العنصر السائد في عصرنا هذا ، وسواء أاردنا ام لم نرد فالغرب محيط بنا من جميع جوانبنا ، آخذ علينا كل سبيل من سبل حياتنا ، وسواء أشئنا ام لم نشأ فهذا العنصر المندفع بقوة لا تقدر سوف يفرض نفسه علينا ويعمل في تكوين مستقبلنا . فحري بنا اذن ان نفهمه حق فهمه ، وندرك كنهه ، ونعرف ماهيته ، كي نحسن مجابهته ويكون امتزاج روحنا بروحه على نور وهدى وبصيرة لا بفعل الصدف الطارئة والاحوال المسيرة .

واني لأخشى كثيراً ان سواد هذه الامة الاعظم لم يفهم الغرب بعد فهما صحيحاً ولم يصل بادراكه الى لبه ومتفجر حياته ، بل لا يزال مأخوذاً بمظاهره الخارجية وانواره

الخلابة . فالغرب في نظرنا هو ما يحيط بنا من سيارات سريعة الجري ، وملاهٍ باهرة النور ، وادوات عجيبة الصنع ، واذا تقدمنا درجة أخرى في وعينا وادراكنا احسسنا بما يفيض عنه من جيوش في زمن الحرب ، ومن اتفاقات وعهود في أوقات السلم ، او لمسنا نتفاً متفرقة ونواحي فرعية مما ينتج عقله من أدب وعلم . وانا ازعم ان هذه كلها ليست جوهر الغرب ، بل هي مظاهر خارجية نقف عندها فتلهينا عن القوة الحقيقية التي تصدر عنها . فوراء هذا جميعاً نظام اقتصادي متشابك خلقته الثورة الصناعية الحديثة يرمي الى استغلال موارد الطبيعة ومواهب الانسان وقابلية الآلة الحديثة في سبيل زيادة الانتاج وتنظيمه . فكلما زاد انتاج الامة وانتظم ، توفر غناها وفاضت ثروتها وتمكنت من ان تفرض نفسها على الامم الاخرى . وما دامت موارد الامة غير مستغلة استغلالا تاما ، وسبل انتاجها غير موجهة توجيها قومياً ، فلا يمكن ان يكون لها صوت مسموع او يد مدبرة . وكل ما في الغرب اليوم من معامل ومعاهد وانظمة حكومية ، وما يطغى عليه من ازمات اقتصادية وتيارات اجتماعية وثقافية ، انما هو — في جزئه الاكبر — وليد هذا النظام الاقتصادي المتشعب

المعقد . ومهما قال الناس في اخطاء هذا النظام ومراكز ضعفه ومهما تذمروا من تضارب عناصره وتطاحن اجزائه وبما يجره على العالم من فوضى وارتباك ، فليس من شك في انه سيبقى في جوهره - اي في ما يرمي اليه من استغلال موارد الطبيعة واستخدام الآلة الى اقصى حد ممكن - النظام السائد في المستقبل ، وان لا سبيل الى الرجوع الى ما كان عليه السلف ، او ما يدعو اليه بعض المصلحين ، من أنظمة اقتصادية بسيطة فطرية . ونحن اذا ادركنا النظام الاقتصادي الحديث على حقيقته ، وميزنا بين حسناته ومساوئه ، امكننا ان ندخله في حياتنا على نور هذا الادراك والتمييز ، واستفدنا من اختبار الغرب الواسع ، فتجنبنا ما اصاب الغرب منه من مضار وآلام ، وقطعنا في سنوات ما توصل اليه الغرب في اجيال . ولعل ابرز ما يمتاز به هذا النظام الاقتصادي هو التنظيم الدقيق الذي يؤلف بين جميع اجزائه ، ويسري في جميع نواحيه ، فيوحدها ويربطها ربطاً متيناً كارتباط اجزاء هذه الادوات العجيبة التي يطلع علينا بها الغرب حيناً بعد حين . هذا التنظيم الذي ينبعث من معامل الغرب ومصانعه قد ساد الحياة الغربية فسرى الى النفوس وكيّف العقول بحيث اصبح جزءاً من

شخصية الغربي يظهر في شتى نواحي حياته السياسية والاجتماعية والثقافية . وما من احد يلقي نظرة على الحياة العربية الحديثة بشتى مظاهرها الا ويلحظ ان روح التنظيم الصحيح لم تتسرب بعد الى نفوسنا ولم تختلط بلحمنا ودمنا ، ولعلها لن تبلغ ذلك الا عندما يسود حياتنا هذا النظام الاقتصادي المتماسك الاركان المتصل الحلقات الذي يكيف حضارة الغرب الحديث .

ووراء اقتصاد الغرب ، علم الغرب . ولست اعني بالعلم هذه المعلومات المتفرقة التي نستمدها من الكتب المدرسية او المؤلفات السطحية فنطلي بها عقولنا ، ونصبغ نفوسنا ، ونعتز بها بزهو واغترار ، وانما اعني تلك الطريقة في التفكير وذلك الاسلوب في التحليل الذي يثبت في العقل ويشيع في النفس عندما يعاني المرء التدريب العلمي الصحيح : اعني البحث الدائم عن الحقيقة ، والشك اليقظ في ما لا يوافق العقل ، والاستنتاج الصحيح والمنطق السليم . اعني التواضع النفسي الذي يقدر ضآلة المعلوم بالنسبة الى المجهول ، والاتزان العقلي الذي يقيس الامور بمقاييسها الصحيحة ، والاطمئنان الروحي الذي يفيض على النفس من سعيها الحثيث الى الحقيقة واشراقها بها . ويخيل الي أنه لا يزال بيننا وبين

هذه المزايا العلمية الصحيحة خطى واسعة ومراحل بعيدة ، وانه يحسن بنا ان نقبل على علم الغرب بقلوب متواضعة ونفوس ظمأى ونروي عقولنا من منابعه النقية . وان كنت أخشى شيئاً فهو هذا الطغيان الادبي الذي يسود حياتنا العقلية ، والذي يحمل لنا شتات اسماء الأدباء في الغرب وفتات آرائهم ومذاهبهم فنتهالك عليها ونتجادل ونختصم فيها ، ونلهو بها عن القوة العقلية الكبرى التي تهيمن على الحياة الحاضرة : وهي قوة العلم المنصرفة الى مجابهة مشاكل الانسان في الطبيعة والاجتماع . ومن الخطأ الفاضح ان يشكو بعضنا من كثرة العلم ووفرة المتعلمين ، ويتذمر من الازمة الاجتماعية والفكرية الناشئة عن ذلك . فما كانت كثرة العلم لتضر بامة من الامم او تعيقها عن سيرها ، وانما هو طغيان العلم الزائف على العلم الخالص ، وتفشي المعلومات الخارجية السطحية التي تذهلنا عن الروح العلمية الصحيحة . ولعلنا لم نكن في يوم من الايام احوج الى ان نعي هذه الروح العلمية وعياً رشيداً ، وندرك مقامها في حاضرنا ومستقبلنا ، منا في هذا العصر الحديث .

ووراء علم الغرب ، فلسفة الغرب . وفي الفلسفة تجتمع شتى التيارات الفكرية والعاطفية وتتجه كلها نحو هدف واحد

في نسق واحد . وقد ظهرت في تاريخ الغرب عقول جبارة جمعت هذه التيارات ، ودفعتها موحدة في مجارٍ غزيرة فاضت على الحياة الغربية فكيفتها ولونتها بالوان خاصة . وليس من شك في ان هذه العقول تختلف فيما بينهـا وان الوان فلسفتها تتباين بعضها عن بعض ، وليس من شك في ان المجاري التي تدفقت فيها قد تباعدت وتنافرت ، ولكن وراءها كلها عنصراً جوهريا لا يتغير ولا يتبدل ، ومنبعاً اصلياً يمدها جميعاً . وهذا ما يجعل عامة الغربيين ينظرون الى العـالم نظرات متشابهة ، ويقدرون قيم الحياة بمقادير متقاربة ، يختلفون بهـا عما سواهم من الشعوب التي لا تعيش في جوهم ولا تصدر عن فلسفتهم . واني لأعتقد اعتقاداً مكيناً انا لن نستطيع ان نفهم الغرب على حقيقتـه ، ما لم نفهم افـلاطون وارسطو ، واغسطين واكويناس ، وديكارت وكانت ، وهيجل ونتشه ، وسواهم من قادة الفكر الذين فرضوا عقولهم على الغرب ووجهوا تياراتـه الفكرية وجهتها الخاصة . ولنذكر هنا ايضاً ما تبين لـنـا في أمر العلم من ان المعلومات الفلسفية شيء ، والفلسفة - كنظرة عقليـة وهيئة نفسية - شيء آخر ، وان فهم الفلسفة الغربية الذي ننشد هـو تلك المعرفـة التي تخترق بها اذهاننا الى قلب

التفكير الفلسفي ، وتلتهب بالروح الفلسفية المنبعثة منه .

النظام الاقتصادي ، ومن ورائه العلم ، ومن ورائهما الفلسفة : تلك هي ، في نظري ، العناصر الاساسية التي تتألف منها حقيقة « الغرب » . وخليق بمن اشرقت نفسه بالوعي القومي الواضح ان يفهم هذه العناصر الثلاثة فهماً صحيحاً فيلمس بذلك روح الحضارة الغربية المتدفقة علينا . فاذا جمع هذا الفهم الى ادراك شخصية الامة الداخلية في مناحي قوتها وضعفها نظر نظرة صائبة الى الحياة العربية الحاضرة المتكونة من تفاعل هاتين القوتين العظيمتين .

*

على ان الوعي القومي لا يكتمل الا اذا تقدم من فهم ماضي الامة وادراك حاضرها الى تقدير مستقبلها وتصوير مصيرها . فالامة التي لا تعرف معرفة يقينية واضحة الغاية التي تسير اليها ، ولا تنظم وسائلها لبلوغ هذه الغاية ، مقضي عليها بالفشل والخسران في ميدان هذه الحياة ، ومقدر لها ان تذهب وتبيد دون ان تخلف وراءها أثراً في سجل التاريخ . ونحن اذا انعمنا النظر في هذه المسألة الخطيرة في حياتنا القومية وجدنا ان الغاية القصوى لأية امة من الامم انما هي

الرسالة التي تؤديها هذه الامة للثقافة الانسانية والتمدن العام. فالامة التي لا تشعر بان لها رسالة في هذه الحياة لا تستحق هذا الاسم ، بل لا يمكنها مطلقاً ان تبلغ مستوى الامة الصحيح اذ لا يكون ثمّ مبرر لوجودها او غاية لكيانها . وما الاستقلال والوحدة في واقع الحال سوى وسائل لبلوغ هذه الغاية الاخيرة . فاذا نحن طلبناهما واندفعنا وراءهما اندفاع المستميت فلأنهما يحققان لنا الوسائل ويفتحان امامنا السبل لأداء رسالتنا وتبليغ دعوتنا .

وخليق بالامة العربية ان يكون لها رسالة رفيعة بين الامم . وخليق بكل عربي ان يشعر بان محيط امته الطبيعي وتاريخها الخاص قد اهّلاها لمهمة لم تتوفر شروطها لاية امة اخرى ، وان القوة المدبرة وراء هذا الكون قد اعدت العرب لأمر لا يستطيع اي شعب آخر ان يقوم به دونهم . ذلك هو الشعور الذي يمتلك الالماني عندما يحدثك عن امته وعن مستقبلها ، فجميع عناصر حياته : ـ العلم ، والفن ، والادب ، والقوة الحربية ، والتنظيم الاقتصادي ـ كلها تكتسب قوة جديدة وتصطبغ بالوان زاهية ، وتأتلف في صورة واحدة هي الرسالة التي حفظ القدر للامة الالمانية ـ

ولها وحدها — امتياز تأديتها ، بل واجب هذه التأدية .
ومثل هذه العقيدة تملأ نفس الانكليزي ، والافرنسي ، والياباني ، وكل من يطمح الى ان يكون لامته مقام على الارض وذكر في التاريخ . وليس يخاف ان هذا الشعور برسالة قومية قد يبلغ في احيان كثيرة حد التطرف ، وان الامم قد تتخذه ستاراً لاطماعها المادية الدنيوية — كما فعلت الدول الغربية في تاريخها الاستعماري وفي الحرب العظمى ، وكما تفعل اليابان في هذه الايام — غير ان الخطر عندنا ليس في الغلو والافراط ، بل في التفريط والنقصان ، وليست مصيبتنا حب السيطرة وفرض السلطان ، بل خور العزم وضعف الايمان . ونحن اذا فكرنا وشعرنا برسالة قومية كبرى ، اكتسب جهادنا في سبيل الحرية والاستقلال معنى جديداً ، واكتسى سعينا الى الوحدة والسيادة حياة بهية ، واستمددنا من هذه الغاية القصوى التي نضعها نصب اعيننا قوة مضاعفة وهمة مزدوجة لبلوغ الوحدة وتحقيق الاستقلال .

وليس هذا الذي اقوله عن رسالة الامة العربية مجرد شعور وهمي يتسلط على النفس ويسري في القلب ، وانما هو

ايمان مبني على المقارنة والاستنتاج . فليس من المعقول ان الامة العربية التي انزلتها الاقدار في هـذا الموقع الممتاز من الكرة الارضية ، والتي تفتحت مواهبها في العصور الغابرة على مآثر باهرة في شتى نواحي الحياة — اقول ليس من المعقول ان امة كهذه لا تكون لها مزية معينة تنفرد بها عن غيرها من الامم ، ويد خاصة تسديها الى التمدن البشري .

اما اذا اردنا تحديد هذه الرسالة بالضبط ، ومعرفة ماهيتها الحقيقية ، فقد وجب علينا ان نقوم بدروس عميقة وتأملات بعيدة ، تتناول المحيط الطبيعي ، والميراث الجنسي ، والتاريخ الاجتماعي ، والانتاج الثقافي ، وتتعمق دون هـذه المظاهر كلها الى روح الامة وشخصيتها . ومن النقص الشائن ان قادتنا ومفكرينا لم يقوموا بعد بهذه المهمة الخطيرة في حياتنا القومية ، ولم يرسموا لنا رسالتنا الخاصة بصورة لا يشوبها غموض او ابهام . ولكن لعلنا لا نعدو الحق اذا قلنا ان عمل الامة العربية سيكون في المستقبل كما كان في الماضي : فكما ان العرب استطاعوا في العصور الغابرة ان يهضموا مدنيات اليونان والرومان والفرس والهند ، ويمتصوها بعقولهم النشيطة ونفوسهم الظمأى ثم يخرجوها الى العالم وحدة

منسجمة غنية المادة باهرة اللون ، كذلك ستكون مهمة العرب في الاعصر التالية ان يتشربوا علم الغرب ويجمعوا اليه العناصر المختلفة التي تنشأ في الغرب والشرق كردّ فعل له ، ويؤلفوا بينها كلها في وحدة جديدة تكون عنوان الحياة المقبلة ويفيض بها العرب على العالم كما فاضوا عليه بمدنيتهم الباهرة في القرون الماضية .

ولكن ، سواء أكانت هذه رسالتنا الحقيقية ام لا ، فحسبنا ان نعتقد ان لنا رسالة ما ، وان نؤمن انها اعدت لنا واننا اعددنا لها ، وحسب قادة الفكر بيننا ان ينصرفوا لايضاح هذه الرسالة ، وتبيين هذه الغاية ، فيفتحوا امامنا الطرق ويمهدوا لنا السبل والوسائل .

*

كفى بما تقدم تصوراً لما اقصد من الوعي القومي الذي قلت انه القوة العظمى التي نحتاج اليها في هذه المرحلة الخطيرة من حياتنا . وقد تبين ان هذا التنبه العاقل يقوم على اركان ثلاثة : فهم صحيح لماضي الامة الذي تحدرت منه شخصيتها ، وتقدير متزن لقوى الحاضر وعوامله ، وايمان متين بهدف الغد ورسالة المستقبل . وقد تبين لنا ، ولا شك ، ان هذا

الوعي القومي لا يمت بصلة الى الاهتمام الفائر بالسياسات المحلية الذي طغى علينا وافسد حياتنا ، بل هو ارفع منه واسمى ، وبقدر ما يمتلك النفس ويسود العقل يخف هذا الهيجان الذي تتخبط فيه وتهدأ الحمى التي تثور في جسمنا ، وننظر الى الامور نظرة قومية كبرى لا نظرة محلية ضيقة . ولرب معترض يقول ان هذا الوعي القومي غير متيسر لافراد الامة جميعاً ، وانا اذا نظرنا الى الامم المتيقظة في الغرب والشرق وجدنا ان عامتها قلما تبلغ هذا الادراك الشامل الذي وصفنا . والجواب عن ذلك ان الاختلاف واقع في الدرجة لا في النوع ، وان سواد الامم الحية قد بلغ من هذا الادراك حداً ابعد كثيراً مما بلغه سواد امتنا ، وقد يكون ابعد مما وصل اليه قادتنا واولياء امورنا .

والمهم في امر هذا الوعي القومي ان ايقاظه في النفس ليس من اختصاص قادة السياسة وارباب الحكم فحسب ، بل ان كل فرد من افراد الامة يستطيع ان يساهم فيه ايا كان عمله او شأنه . فمجال العمل فيه مفتوح امام الموظف في مكتبه ، والصانع في معمله ، والصحافي في جريدته ، والمعلم في مدرسته ، بل امام كل من تقربه طبيعة عمله الى نفوس

مواطنيه وتربطه بهم . ومن هنا استطعنا ان نقدر مبلغ ما يمكننا تحقيقه من هذا القبيل ، لو ان جميع المتنبهين المدركين بيننا تعاونوا على هذا العمل الاحيائي كل من ناحيته . اذن لتفتحت نفوس هذه الامة باسرع مدى وتنبهت عقولها بايسر زمن .

واراني مدفوعا هنا الى ان اشير اشارة خاصة الى الدور العظيم الذي تلعبه المرأة في هذا الحقل الخصيب . فالمرأة - صديقة للرجل ، او زوجة له ، او اماً له او لاولاده - قوة لا تقدر في تكييف حياة الامة وايقاظ نفسها . وفي كل طور من اطوار حياتها فرص لا تعد ولا تحصى تنكشف لها فيها عقول افراد الامة وارواحهم . ولرب شرارة واحدة من نفسها المتقدة تكفي لتنبيه اعظم القوى في تلك العقول ولبعث اشد التيارات في هذه الارواح .

ولكن ، كيف يمكن المرأة العربية ان تساهم في ايقاظ الوعي القومي ، ان لم تكن هي نفسها قد احرزته وامتلأت نفسها به . وكيف يمكن الامة العربية ان تبلغ هدفها وتحقق غايتها اذا كان نصفها الافضل منطفئ النفس ، خامد الروح ؟ لقد سمعنا كثيراً في المحافل النسائية وسواها عن قضية المرأة ،

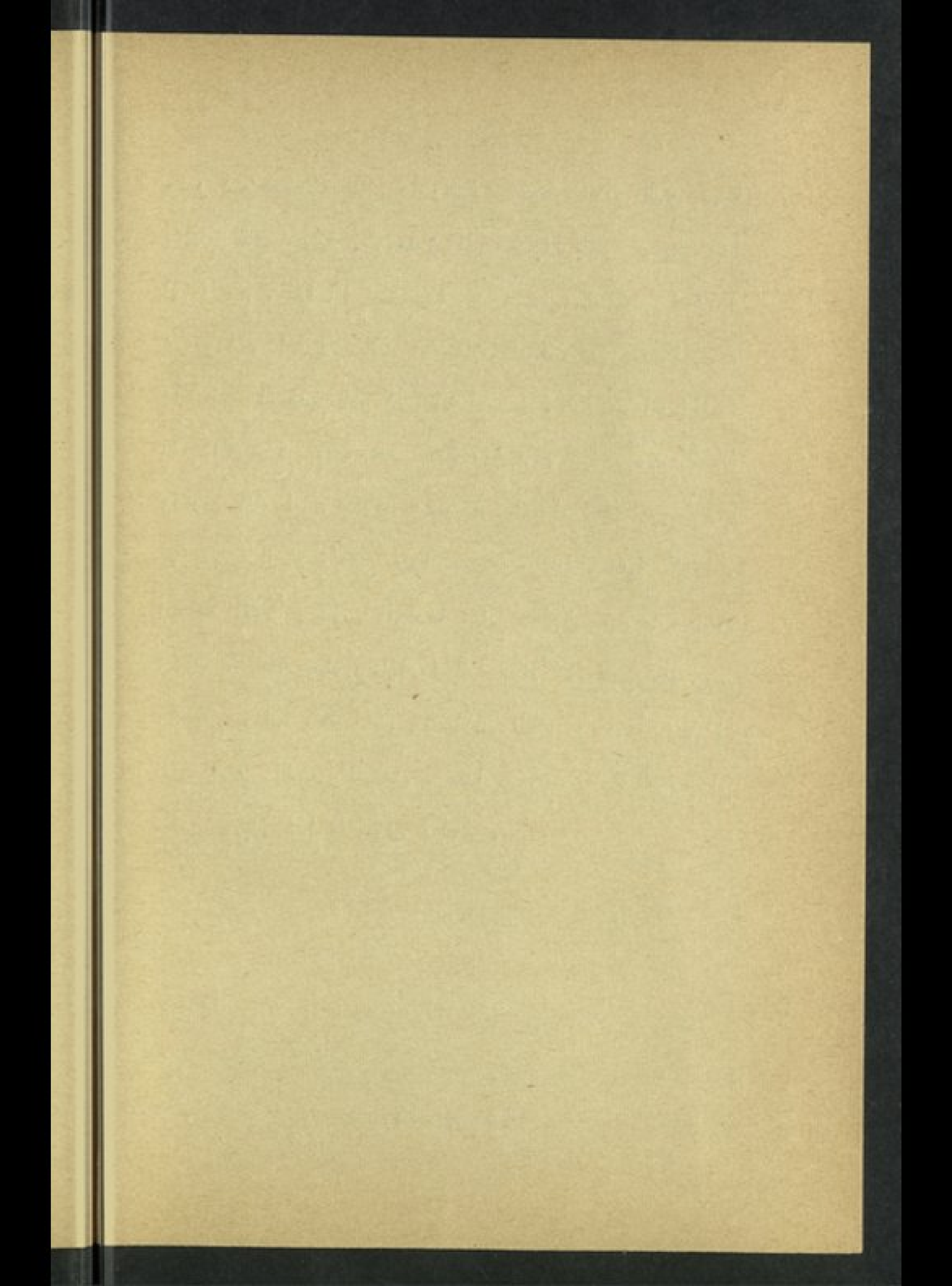
وعن المرأة العربية بوجه خاص ، ولست اريد الآن ان اعيد ما اعتدنا ترديده من اقوال وآراء في هذا الموضوع . وانما هو يقين متمكن من نفسي ، واقتناع شديد يلح علي في ان اجاهر بما يخالجني ، وأؤكد بكل ما استطيع من قوة مقام المرأة العربية في تنبيه هذا الوعي القومي : سواء بما تحيي في النفوس من ماضي الامة ، او بما توجه اليه العقول من حاضرها ، او بما ترسم من غايتها في مستقبلها . ولعل الدور الذي تلعبه في هذه الناحية الاخيرة — اي في رسم الغاية وايضاح الرسالة — أشد اعمالها خطورة واعمقها أثراً .

هذا هو الواجب الاسمى الملقى على عاتق المرأة العربية . وهذا ما يجب ان تفهمه نساؤنا ، وما يجب ان يفهمه ايضاً رجالنا : لان نهضة المرأة العربية التي تؤهلها للقيام بهذا العمل القومي الخطير منوطة بالرجال والنساء معاً ، وان كان مبعثها الاول والاخير هو النساء انفسهن .

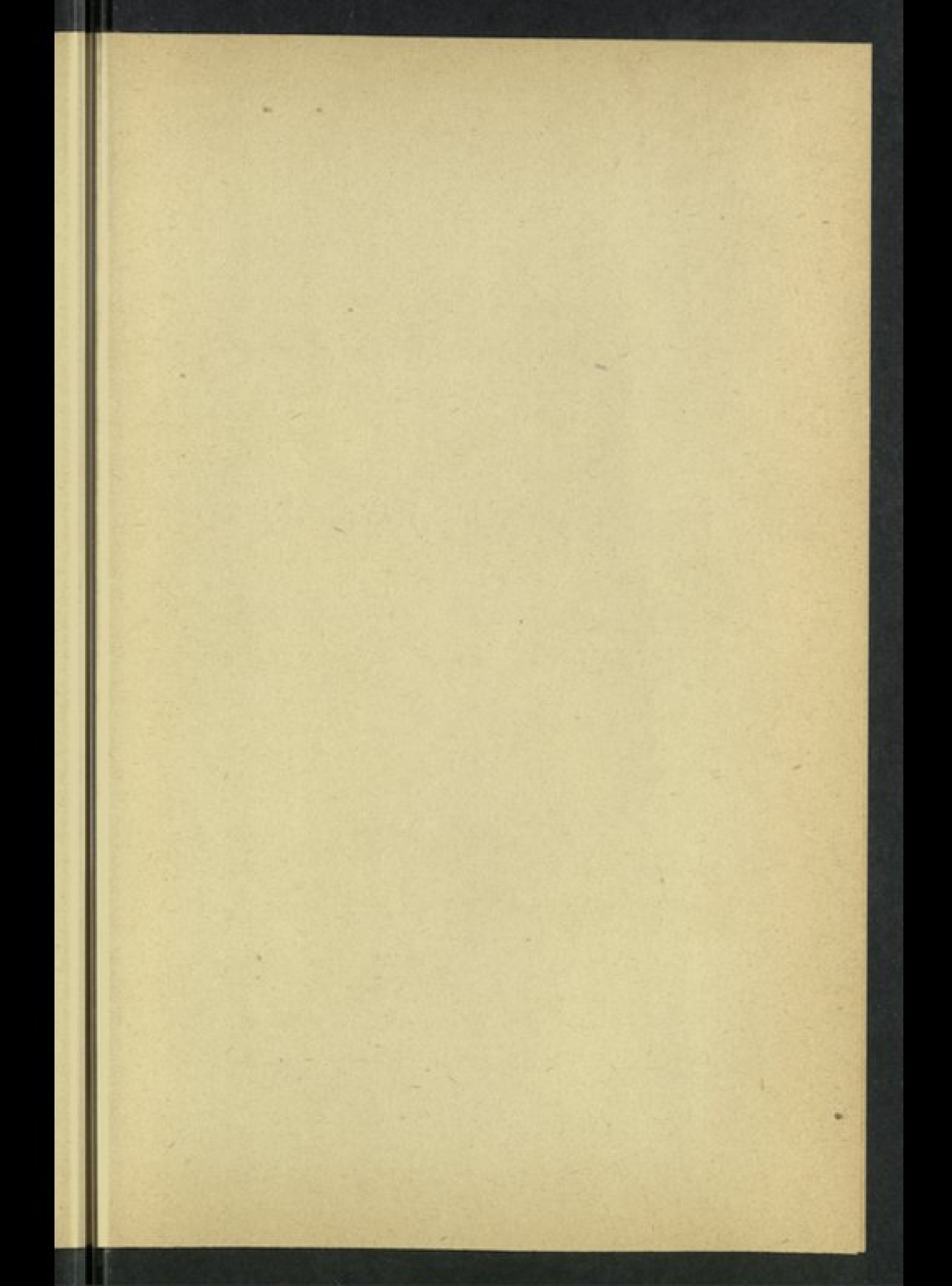
*

في موقع ممتاز من الكرة الارضية ، وعلى ملتقى الطرق بين الشرق والغرب ، وفي وسط مجاري الثقافة والمدنية ، تحيا امة قد تشربت عصارة ماضيها وتقبلت وحي تاريخها ،

وادركت كنه حاضرها وعرفت جوهر العالم الذي فيها والعالم الذي حولها ، وتطلعت الى مستقبلها بنظر ممدود ابداً الى الامام ، وقوة مستمدة من هدف منصوب وخطة مرسومة . امة قد نالت الاستقلال فعرفت معنى الاستقلال ، واحرزت الوحدة فادركت غاية الوحدة . امة قد اخترقتها اشعة الحرية فلم تقف عند المادة والجسد ، بل اضاءت العقول وانارت الارواح . امة قد علمت ان السيادة الحقة هي سيادتها على نفسها الصادرةُ عن فهمها سبب وجودها وماهية كيانها . امة قد امتلأت قلوب افرادها بايمان كل حبة منه تنقل الجبال ، وعلا جباه رجالها ونسائها ضياء كل قبس منه يهدي الاجيال . امة يكفينا في وصفها ان نقول : قد سرى في نفسها الوعي القومي الكامل . هذا ما نريد الامة العربية ان تكون ، بل هذا ما سوف تكون .



# المرأة العربية في الحياة القومية



في هذا الدور من النهضة القومية حين يبادر كل فرد من افراد الامة الى تفهم الواجب الذي تفرضه هذه النهضة عليه والمهمة التي تتطلبها منه ، والى تلمس الطرق التي تمكنه من ان يؤدي هذه المهمة ويقوم بذلك الواجب ، في هذا الدور الدقيق — دور التنبه والتحفز — يجدر بالمرأة العربية ان تنعم النظر والتفكير في قسطها الخاص الممتاز من العمل القومي ، وفي ما يطلب منها ، ويرجى لها ، من يد فيه ونصيب منه . كذلك يجدر بكل من يهمه تحقيق الاهداف القومية ان يشارك المرأة في هذا التفكير ، وان يسام في تحديد الغاية وايضاح الطريق ، كي تسير المرأة العربية الى اداء واجبها على نور وبصيرة ، وباطمئنان ويقين .

كل واجب يقوم به الانسان لا يكون صحيحاً كاملا الا اذا تألف من عنصرين مقترنين : علم وعمل . فالعلم الذي لا يسير بصاحبه الى العمل المنتج المجدي علم زائف زائل ، والعمل الذي لا يبنى على علم صحيح وفهم دقيق لا يلبث ان تهب عليه عواصف الايام فتبدده هباء منثوراً . والمعضلة الكبرى في هذا العصر هي ان الناس — الا اقلهم — يعملون

دون ان يعلموا ، او يعلمون ولكنهم يحجمون عن ان يعملوا . فواجب الفتاة العربية القومي يبتدىء اذن بالعلم الصحيح ، وينتهي الى العمل المثمر .

يبتدىء واجبها القومي بعلمها باحوال بلادها ، وفهمها لمشاكل وطنها وامتها . فهي لا تكون بنتاً حقيقية لبلادها ، ولا قطعة حية من وطنها ، اذا لم تتصل به اتصالا روحياً وثيقاً ، وتحس احساساً داخلياً عميقاً بتاريخه الماضي ، ومشاكله الحاضرة ، ورسالته المستقبلة . أليس من المؤسف المخزي ان الفريق الاغلب من فتياتنا المتخرجات في المعاهد المختلفة لا يعلمن هذا العلم ، ولا يحسسن هذا الاحساس ، بل يعشن في هذا الوطن غريبات عنه يتصلن به باجسامهن ، لا بارواحهن ؟ يدرجن على ارض هذا الوطن ويتنشقن هواءه ، ولكنهن لا يلمسن روحه ، ولا يشاركنه نعيمه وشقاءه . تشغلهن عنه مظاهر المادة الزائلة ، وزخارف الحياة التافهة ، فاذا حلمن طارت نفوسهن الى ارض غير ارضه ، وسماء غير سمائه ، واذا اعجبن او تباهين فبغير تاريخه ، ومآثره ، ورجاله .

وليس من شك في ان المسؤولية الكبرى عن هذه العلة تقع على البيت اولا ، وعلى المدرسة ثانياً . ولسنا

نستطيع ان نتدارکها الا اذا بدأ الاباء والامهات ، فغرسوا في نفوس بناتهم منذ الطفولة بذور التربية القومية الصحيحة ، ثم جاءت المعاهد المدرسية فتعهدت هذه النبتة بالعناية والتقوية حتى تتفتح زهوراً فواحة العبير ، ثم ثماراً جنية القطاف . فالاباء والامهات الذين يتخلفون عن هذا العمل يخلون باول واجب من واجباتهم القومية ، والمدارس التي تهمله تقصر في تأدية رسالتها ، بل تنقلب عناصر ضارة في كياننا . وكل فتاة عربية قضت سني دراستها دون ان تتهذب هذا التهذيب القومي لا تزال تربيتها ناقصة ، وثقافتها عليلة ، مهما جمعت من العلوم وحازت من الشهادات . فلتبادر الى سد النقص ، ومداواة العلة ، بدرس احوال وطنها وادراك كنه ماضيه وحاضره ، حتى تتصل به اتصالا روحياً وتصبح جزءاً لا ينفصل عنه . ولتعمل لدى حكومتها وفي أثارة الرأي العام حولها ، كي يتجه الوالدون من جهة ، والمدارس من جهة اخرى ، اتجاهاً قومياً صحيحاً ، فلا يفوت اخواتها ما فاتها هي ، بل ينشأن على معرفة بلادهن معرفة عميقة ، وفهم حياة امتهن فهما دقيقاً ، فيصبحن منها في الصميم ، ولا يعشن — كما تعيش الكثيرات اليوم — على هامش الحياة القومية ،

وبمعزل عن تياراتها المتدفقة .

*

فاذا علمت الفتاة العربية هذا العلم — وكان علماً صحيحاً — قادها بطبيعة الحال الى المساهمة العملية في خدمة بلادها . والعمل القومي الذي ينفسح مجاله امامها عندئذ عمل واسع الافق بعيد المدى . ففي كل حركة من حركاتها - اذا اخلصت - مجال لخدمة قومية صحيحة ، وفي كل نبضة من نبضات فؤادها ، وكل ابتسامة تعلو شفتيها ، احياء لناحية — مهما ضؤل شأنها — من حياتنا القومية . ولسنا نستطيع في هذا البحث الموجز ، الذي يقصد الى الكشف عن الموضوع اكثر منه الى استقصائه ، ان نحيط بهذا العمل القومي من نواحيه المختلفة ، فلنقتصر اذن على مظاهره الكبرى .

لنبدأ بها كصديقة ، ثم كزوجة . لقد مزقت قوى العصر الحديث الحجب التي كانت تفصل بين الشاب والفتاة . فبعد ان كانت الفتاة ، الى ايام مضت ، محجوبة عن اخيها الشاب ، اذا بها الان تجتمع به في شتى المناسبات ، وتبادله الود والولاء . والشاب العربي تحيط به اليوم صعوبات هائلة : مشاكل سياسية ، وازمات اقتصادية ، ومعاضل اجتماعية ،

وفوق هذا كله : حيرة روحية داخليــة تتسرب الى اطراف نفسه ، وتزعزع مبادئه العقلية والخلقية . وكثيراً ما تسودّ الدنيا في عينيه ، ويرفرف القنوط المشؤوم على روحه ، فيشل فاعليته ويجعله عضواً عاجزاً — بل فاسداً — في جسم امته . وكثيراً ايضاً ما تلتف حوله افاعي المادة فتخنقه وترميه الى الحضيض صريعاً فاقد الروح مطفأ الامل . هنا ينفسح المجال لشريكته المرأة — صديقة او زوجة — لتؤدي رسالتها الحقة ونصيبها الصحيح . فلقد خلقت المرأة لتكون عون الرجل في محنته ، وسنده في ضعفه ، ونوره في ظلمته . وان القلب ليدمى عندما يلتفت احدنا اليوم فيرى ان الكثيرات من نسائنا يقصرن في تأدية هذه الرسالة السامية ، بل غالباً ما تستهويهن اباطيل المادة الزائلة : من ترف في الأكل والملبس والمسكن ، ومن رغبة في الظهور وتهالك على التقليد ، فيغمسن الرجل في بؤرة المادة بدلا من ان ينشلنه منها ، ويزدن في حلك قنوطه وحيرته بدلا من ان ينرن بمشعلهن الروحاني سبيله ويبددن ظلماته .

ولا يستصغرن احد ما في هذا العمل الهادىء المتواضع من الخدمة القوميــة الفعالة . فكم من زعيم استأسد في جهاده

بفضل الروح التي نفختها فيه زوجته ، وكم من رجل استجمع نفسه بعد ان كانت مضطربة مبعثرة بمسحة سحرية مسحته بها صديقته او حبيبته . وقديماً قالت العرب : النساء امهات الرجال . ولست افهم من هذا القول الا انهن امهاتهن بالروح يقبضن بانامِلهن الناعمة على ازمة نفوسهم : فاما يرفعنهم الى قمة المجد والحرية ، واما يخفضنهم الى هوة الذل والعبودية .

اما واجب المرأة العربية كأم ، فليس من الضروري الافاضة فيه في هذا المقام ، ونحن نعلم علماً لا يدانيه شك ان الامة التي تكون في بدء نهضتها ومطلع حياتها تحتاج الى رجال ونساء اقوياء في اجسادهم وعقولهم وارواحهم ، وان العامل الاول في خلقهم وتنشئتهم هو الام التي تتعهدهم في السنين الاولى من حياتهم وتغرس بذور شخصيتهم . فكل ما يمكن قوله الآن هو ان مهمة الامومة مهمة خطيرة ومسؤوليتها جسيمة ، واننا — نساء ورجالا — قلما نقدر خطورتها ونرفعها الى مقامها الذي لها في حياة الافراد والامم . فعلى المرأة العربية ان تعد لها عدتها وتوفر لها شروطها ، وان لا تقدم عليها الا وهي شاعرة بعظمتها وخطورتها واثرها في مستقبل الامة . وعلينا جميعاً ان نساعدها في خلق هذا الجو وايقاظ

هذا الشعور كي تؤدي الام رسالتها القومية العظمى بان تخرج للامة اعضاء اصحاء يحفظون قوتها ويبعثون حيويتها .

بقي اخيراً واجب المرأة العربية كعاملة في الخدمة العامة .

ان اعمالنا العامة محاطة بكثير من الصخب والضجيج ، ومن الجعجعة التي نسمعها ولا نرى وراءها طحناً . وليس من الخير في شيء ان تزيد المرأة هذا الصخب المتصاعد ، وان تنحط الى ما ينحط اليه اكثر رجالنا من التكالب على الوظيفة والدس والمراوغة والمناورات الحزبية الهدامة . ففي العمل القومي نواحٍ عدة اعمت السياسة والشهوة المادية عين الرجل عنها ، واخرى لا يستطيع ــ حتى لو انتبه اليها ــ ان يعمل فيها ما تعمله المرأة التي اعدتها الطبيعة لها اعداداً خاصاً بما خلقت في نفسها من حب واخلاص ، وما افاضت عليها من شفقة وحنان . في هذه النواحي ـ وكلها خطير ـ يقوم واجب المرأة وتتجلى عبقريتها .

فالامة تعج بطبقات وافرة من الناس يرفرف فوقها البؤس والشقاء ، ويخيم عليها الذل والجهل والظلام : في الشوارع اطفال قذف بهم الفقر والجهل الى هذا العالم وشتتهم فيه حفاة عراة ينغمسون في حومة الرذيلة وينشأون جرائيم قتالة في

كيان الامة . في المعامل والمصانع ، في الحقول والمزارع ، نساء ورجال يرزحون تحت كابوس البؤس والفساد والظلم الاجتماعي . في السجون وبيوت الاصلاح ودور الايتام تعاسة وشقاء وبأس قتال . وفي هذه كلها – وكثير غيرها – علل وادواء بوسع المرأة ان تصب عليها اكسير المحبة والحنان فتزيلها ، او تخفف – على الاقل – من وطأتها . فلرب ابتسامة ناعمة احيت نفساً تعسة ورفعتها من وهدتها ، ولرب دمعة رقيقة بدد صفاؤها ظلمات الشقاء الكثيفة ، ولرب نظرة محيية نشرت الامل بعد اليأس والهناء بعد البؤس . فاذا انتظمت هذه العاطفة الحساسة وترافدت مجاري هذا الغنى الروحاني في ما تنظمه المرأة من جمعيات خيرية واصلاحية ، تدفق البر والاحسان وفاض الحب والحنان ، وكان منها للامة الخير العميم والنفع الجزيل .

ولعمري ان في هذا لخدمة قومية جزيلة لا يدانيها العمل السياسي او السعي المادي . وانه لمن اجمل مظاهر نهضتنا الحاضرة واوفرها مغزى ان جمعياتنا النسائية اخذت تتجه الى هذه الاهداف القومية وتقوم بما تفرضه من مشاريع اصلاحية مفيدة . فعسى ان تتقدم في هذا السبيل ، حتى تتوصل الى

ما اسدته اختها الغربية من المآثر الغراء في هذه النواحي الخصبة من الحياة القومية .

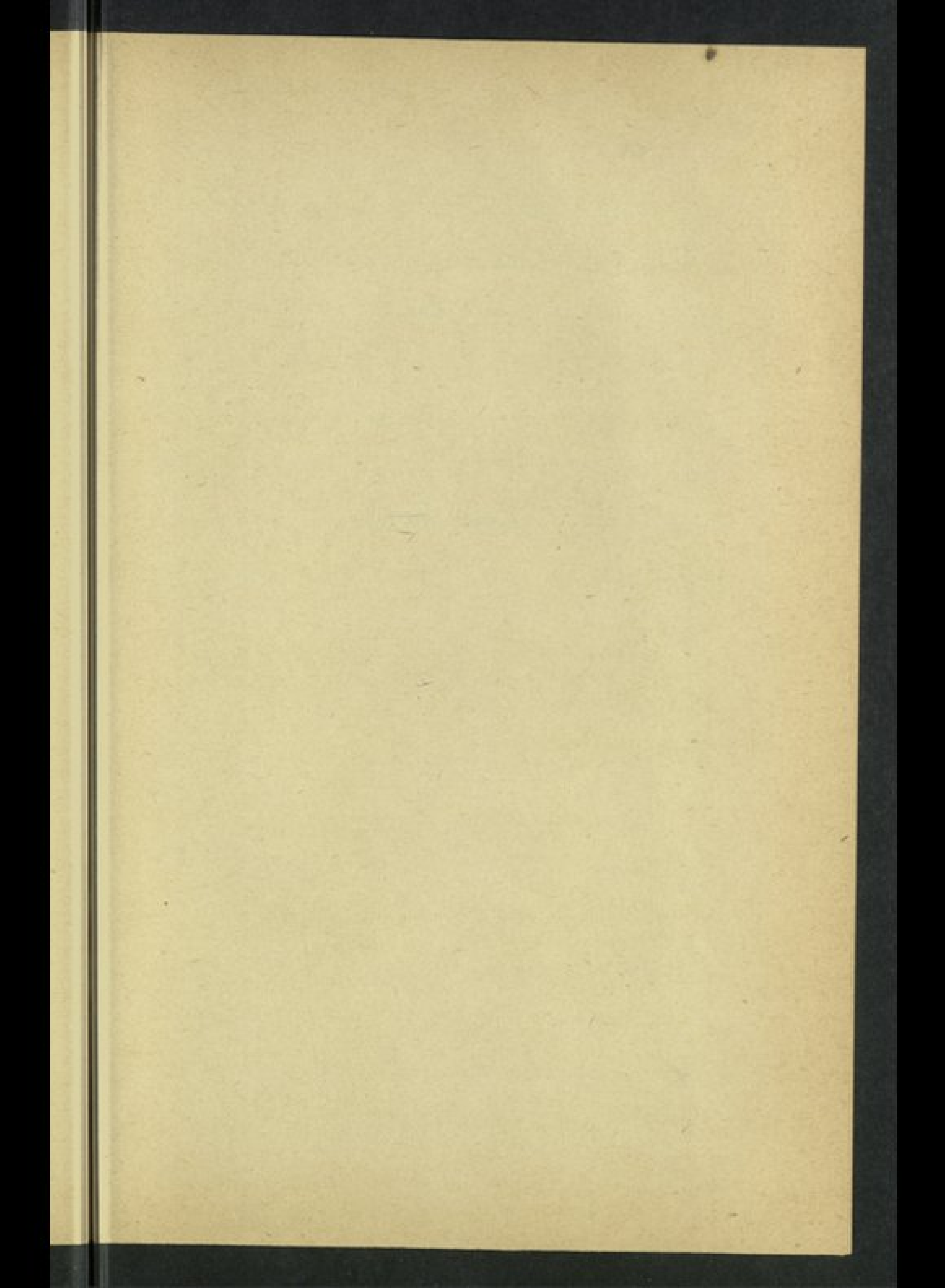
*

ذلك هو واجب المرأة العربية في هذا الدور من حياتنا القومية ، يتجلى في عنصريه : العلم الصحيح ، والعمل المنتج ، داخل البيت وخارجه . وقد بان ان مهمة المرأة العربية هي في جوهرها مهمة روحية ، وان عملها بمظاهره المختلفة : كصديقة ، او زوجة ، او ام ، او مجاهدة في الخدمة العامة ، هو عمل بعث واحياء لما خمد من قوى الامة ونضب من مواردها النفسية . وليس هذا بعجيب ، فكذلك كانت رسالة المرأة في العصور الماضية ، وما تزال : نور يبدد الظلمات ، وسحر يزيح الاثقال ويحيي العزائم والارواح .

وان هذه الرسالة الرفيعة لتعظم في اعيننا ، وتتجلى لنا بحقيقة معناها ومغزاها ، اذا ذكرنا ان معضلتنا الاساسية في حياتنا الحاضرة هي معضلة روحية داخلية . فما المشكلة السياسية ، والازمة الاقتصادية ، لتقاسا بشيء ازاء هذه المعضلة الروحية ، وما كانت اي منها لتتعقد وتستعصي لولا هذه الازمة الداخلية التي تفسخ جسم الامة وتضعضع قواها : لولا الحقد الذي

يشتت الصفوف ، والحسد الذي يفرق بين القلوب ، لولا المادة وحبائلها ، والرذيلة وافاعيها ، لولا العقول المستعبدة ، والارواح المقيدة ، والنفوس الذليلة ، وبكلمة واحدة : لولا هذا الضعف الروحي الذي هيئت المرأة بطبيعتها ومزاجها لازالته والتغلب عليه . فما احوجنا اذن الى هذه النفحة العلوية تنفخها المرأة في كياننا فتحيينا ، والى هذا الاشراق الروحي تفيض به علينا فتنير سبيلنا وتهدينا . وما اخلق المرأة العربية ان تقوم بهذا الواجب الاسمى وتؤدي رسالتها الرفيعة .

# التربية القومية



لست اعرف – بين المواضيع التي ينفسح مجالها للكتاب العرب في هذه الايام – ما هو اعظم نفعاً واحوج الى الدرس والتمحيص من تلك التي تتعلق بحياتنا القومية العامة . فلقد بدأت الامة العربية تمشي في طريق الحرية والاستقلال ، واخذت تبني اسس حياة قومية جديدة . فاصبح من الضروري ان ينصرف كتابها وقادة الفكر فيها الى معالجة القضايا العامة الناشئة عن هذه الحياة الجديدة ، وان يدرسوها على ضوء التاريخ والظروف الحاضرة ، فيسهلوا للامة عملها ، ويعجلوا نهضتها ، ويسددوا خطاها الاولى في طريقها الى الحياة القومية الكاملة .

ولست اعرف — بين المسائل التي تعرض للامة العربية في هذه المرحلة الاولى — مسألة اعظم خطراً من « التربية القومية » ، فانها الاداة التي توحد نزعات الامة ، وتصلب عودها ، وتبعث روحها ، فتحفظ لها — بهذا كله — استقلالها وحريتها . من اجل ذلك ، احببت ان اثير هذا الموضوع الخطير ، آملا ان يأخذه قادة الفكر في البلاد

العربية بالدرس والاهتمام ويوفوه حقه في هذه المرحلة الخطيرة من حياتنا القومية .

واعني بالتربية القومية ذلك التهذيب الذي يكتسبه السواد الاعظم من اهل البلاد ، وينتج عنه شعور الفرد منهم بانه عضو حي من جسم الامة ، فيدفعه هذا الشعور الى القيام بواجبه نحو امته على الوجه الاكمل . ففي هذا التهذيب اذن عنصران لا يتم بدون اي منهما : الشعور القومي ، ثم القيام بالواجب الذي يفرضه هذا الشعور .

واسارع الى القول اني اعني بالقومية شيئاً اعظم من السياسة واوسع . فما السياسة الا ناحية ضيقة من نواحيها ، ولون محدود من الوانها . لان القومية تشمل الحياة باوسع معانيها وتستهدف الامة بجميع احوالها ، وترمي لا الى اكتساب حرية الامة وتوسيع نفوذها السياسي فحسب ، بل الى انماء قواها الروحية ، ورفع مستواها الاجتماعي والعقلي ، والسير بها الى ابعد ما يكون في طريق الحياة المثلى .

ونحن اذا نظرنا في امر هذه التربية القومية وجدنا انها تقوم بوظائف ثلاث : فهي تعد الامة للحياة القومية ، لان الامة التي لم تكتسب هذا النوع من التربية لا يمكنها ان

تحيا حياة قومية صحيحة ، بل تبقى في اضطراب داخلي دائم تتلاعب بها قوى السياسة والاطماع الذاتية . وهي ، من ناحية ثانية ، توحد الامة : فلا تتركها كما هي الحال عندنا ، منقسمة الى عناصر متباينة يفكر بعضها تفكيراً لاتينياً والبعض الآخر تفكيراً انكلوسكسونياً ، ويحيا فريق منها حياة شرقية محافظة والفريق الآخر حياة غربية متهورة ، ويسلك بعض جماعاتها سلوكا دينياً والجماعات الاخرى سلوكا علمانياً ، الى غير ذلك من اسباب الانقسام ، بل تصهرها كلها في قالب واحد وتخرجها امة موحدة النزعات ، متماسكة الاجزاء ، تقف في وجه الاحداث كتلة واحدة ، تعرف ما هي وماذا تريد . فاذا تم ذلك كله ، قامت التربية القومية بوظيفتها الثالثة والعظمى ، وهي مساعدة الامة على تأدية رسالتها الى الانسانية . فان لكل امة من الامم رسالتها الخاصة تؤديها الى المجتمع الانساني عندما تكتمل عناصرها وتتوحد قواها الروحية . ولقد ادت الامة العربية رسالتها في ما مضى من التاريخ ، ثم تفككت عراها وانحلت قواها . وامامها الآن مجال فسيح لتأدية رسالة جديدة . لكن لن يتاح لها ذلك الا باحياء قواها الروحية وتوجيهها الى المثل العليا ، وهذا لا يتم الا

على اساس التربية القومية الصحيحة .

ولنلاحظ ان التربيـة القوميـة تقوم للامم مقـام التربيـة المدرسية للافراد : فهذه ــ اذا كانت تربية صحيحة ــ تعد الافراد للحياة العملية ، وتوحـد النزعات المختلفة التي تختلج في صدورهم ، وتـدفعهم الى تأدية رسالتهم لامتهم او للانسانية جمعاء . وهكذا ــ كما رأينا ــ تفعل التربية القومية في الامم .

ومما يظهر اهمية هذه التربية القومية انصراف الحكومات الحديثة الى معالجتها بجميع الطرق الممكنة لتيقنها من ان الامة لا تتكون بالحدود الجغرافية والوسائل الاصطناعية ، بل بتأليف القلوب وصهر النفوس ، وهـذا لا يتم الا بالتربيـة القوميـة الموحدة . وكفى دليلا على هذه النزعـة عند الحكومات الحديثة الاسماء الجديدة التي اخـذت تطلقهـا على الوزارات والدوائر المشرفة على هذه الناحية من الحياة القومية . فوزارة المعـارف في فرنسـا اصبحت تدعى « وزارة التربيـة القوميـة Education Nationale » بعد ان كانت « وزارة المعارف العامة Instruction Publique » ، ووزارة الدعاية في المانيا النازية تسمى « وزارة التثقيف القومي والدعاية » . وقس على هذين المثلين

سواها ، وهو كثير .

*

وللتربيــة القوميــة شروط يجب ان تستوفيهـا . في مقدمتهـا ان تكون هـذه التربية مستمدة من فلسفـة قوميـة . فهي اجـل واعظم من ان تترك للاحوال المتقلبة والظروف الطارئة . بل يجب ان يكون وراءها ابحاث نظرية عميقـة في القومية ومقوماتها ، وفي الامة وعناصرهـا ، وفي الامة العربية ومميزاتها ورسالتها كما تظهر من طبيعتها وتاريخها . وكلنا يعلم ان ما من حركـة قومية في الغرب الا ولهـا فلاسفتهـا ومفكروها . فالقومية الايطالية كان لها في زمن الحركـة التوحيدية مازيني ولهـا اليوم في ظـل الحكم الفاشيستي باريتو وموسوليني ، والقومية الفرنسية ترتكز على آراء تيير وجول فري وبارّس والكاتب الحديدي شارل موراس ، والقومية الالمـانية تستمد قوتهـا النظرية والروحيـة من فخته وشبنغلر وهتلر وسواهم . وكذا قل عن الحركات القومية عند الامم الاخرى .

اما نحن ، فقد كنا ولا نزال - الا في القليل النادر - اكثر اهتماما بالسياسـات الآنيـة والحركات الوقتيـة منـا

بانشاء فلسفة قومية يبنى على اساسها جهادنا القومي ، وتكون مستخرجة بالدرس الشامل العميق . والآن ، وقد نالت الامة العربية قسطاً من استقلالها واستعادت بعض حريتها ، فقد اصبحت الحاجة الى مثل هذه الفلسفة القومية اعظم ، والخطر من عدمها ابلغ ، لانها عصب القومية والحجر الاساسي في بنائها . فعلى قادة الفكر في الامة العربية ان يلاحظوا هذه الحاجة ويعمدوا الى سدها ، فيقوموا بذلك ببعض ما تفرضه عليهم قيادتهم الفكرية وزعامتهم الروحية .

ومن شروط التربية القومية ايضاً ان تكون ، هي واساسها الفلسفي ، مستمدين من الحياة الواقعية . فما القومية سوى توازن بين القوى المختلفة التي تتجاذب افراد الامة وجماعاتها : القوى الاقتصادية ، والدينية ، والجنسية ، والاقليمية . فعلى الفلسفة القومية ، والتربية المستمدة منها ، ان تأخذا هذه القوى كلها بعين الاعتبار وتحاولا موازنتها والموافقة بينها للوصول الى الاستقرار القومي المنشود . فالتربية القومية التي تصلح في بلاد الغرب قد لا تصلح لنا ، لان القوى الفعالة في الامم الغربية التي انشئت هذه التربية لتوجيهها وتوحيدها تختلف عن القوى العاملة في محيطنا ، والظروف التي خلقت الحركات القومية

الغربية في جوها ليست نفس الظروف المتحكمة في حياتنا الحاضرة . فمن الضروري اذن ان تكون نظرياتنا القومية مستمدة من الحياة الخاصة التي نحياها ، لا من غيرها ، مع العلم بانه يجب علينا كذلك ان نطلع على تطور القومية في الغرب واساليب التربية التي تستخدمها وان نستخرج منها ما يوافق محيطنا وظروفنا .

*

هذه هي التربية القومية ، وهذه شروطها ، فما هي الوسائل التي تتبعها للوصول الى غايتها ؟

لقد شعر قادة الامم بضرورة هذه التربية القومية لبناء الامة فعمدوا الى بثها بشتى الطرق والوسائل . وكان في مقدمة هذه الوسائل : المدرسة . واعني بالمدرسة جميع منظمات التعليم من البستان الى الجامعة ، لكن القسم الاهم منها — من وجهة موضوعنا الحاضر — هو التعليم الابتدائي وبعض الثانوي ، لان اكثرية الامة تتأثر بهما . اما التعليم الجامعي ، فهو مقصور على طبقة محدودة منها .

وليس يخاف على احد أثر المدرسة في بناء الامم واحيائها . فهي الاداة المنظمة الفعالة التي يتعرض لها المرء في السن التي

هو فيها اشد ما يكون تأثراً بالمؤثرات الخارجيـة ، فتكيف عقليته وروحيته وتوجهها الى الغايات التي يستهدفها خالقوهـا ومنظموها . وقد قويت فعالية هذه الاداة وعظم خطرها في العصر الحديث خاصة ، لانتشار التعليم من جهة ، ولاتساع مداه من جهة اخرى . فبعد ان كان التعليم مقصوراً على فئة محدودة من مجموع الامة ، اخذ ينتشر حتى شمل القسم الاعظم منها واخذت الحكومات والشعوب تتفاخر بمعدل المتعلمين من ابنائها ، وبعد ان كانت سنوه قليلة ، اخذت تزيد حتى امتدت على الجزء الاوفر من سني الصبا والفتوة . فاذا اضفنا الى هذا كله تنظيم المدارس المتزايد ، واخضاعها المستمر لتأثير القوة الحاكمة ، تجلت لنا اهميتها وفعاليتها كأداة لبث التربية القومية .

تؤدي المدرسة هذه الوظيفة عن طريقين : مباشرة وغير مباشرة . كانت تمثل الاولى منهـا فرنسا بصورة خاصة . ثم جرت عليها في الازمنة الاخيرة ايطاليا وروسيا والمانيا وغيرها من الدول التي تحاول بنـاء نظم جديـدة : سياسيـة ، او اقتصادية ، او اجتماعية . وهي تقوم على تلقين الطالب تلقيناً منظماً كل ما يظهر عظمة بلاده ، وجمالها ، وبطولة ابنائها ،

وفضلها على امم العالم . ففي المنهاج الافرنسي ، والانظمة التعليمية المنبعثة عنه ، درس خاص : Instruction Civique او التعليم المدني ، يرمي الى تعريف الطالب بنظام مجتمعه وادارة بلاده وواجباته نحوهما . فهو يفسح امام المعلم مجالا حراً فسيحاً لبث مبادىء التربية القومية بين الطلبة . على ان العمل التربيوي لا يقتصر على هـذا الدرس الخاص ، بل يستخـدم الدروس الثقافية الاخرى . فدرس التاريخ مثلا ميدان واسع تظهر فيه بطولة الامة وعظمتها ، وفي درس اللغة والادب مجـال كبير للاشادة بجمال لغـة الامة ، وغزارة ادبهـا ، وسمو وسالتهـا الثقافية . حتى العلوم الطبيعية والرياضية قـد تنقاد لمثل هذا التوجيه ، وذلك بشرح ما انتجه علماء الامـة وفلاسفتها وما لهم من فضل على العلم والاختراع .

اما الطريق الثانيـة ــ الطريق غير المباشرة ــ فنراهـا متبعة في البـلاد الانكلوسكـونية ، وفي مقدمتهـا انكلترا واميركا . اذ ان النظام التعليمي عند هـاتين الامتين ليس خاضعاً للقوة الحاكمة خضوعه عند الامم التي ذكرناها سابقاً ، والمدارس فيهما تتمتع بقسط غير قليـل من الحرية في تكوين مناهجها وتطبيقه . وقد نتج عن ذلك اختـلاف في الاساليب

التي تنهجها الادارات التعليمية عند هاتين الامتين لبث التربية القومية . على ان اعتمادها على التلقين المنظم قليل بالنسبة الى ما نجده عند الامم الاخرى . وانما هي تستغل لهذه الغاية اعمال الطلبة خارج اوقات الدرس ( extra — curricular activities ) ، فتدربهم فيها على المسؤولية الاجتماعية ، والحكم الذاتي ، والتعاون في العمل وتعرفهم عن طرق عملية بمشاكل امتهم ووسائل معالجتها . وهي لا تتبع في هذا السبيل نصوصاً وقواعد معينة ، بل تخلق جواً صالحاً لان تنبت فيه بذور التربية القومية . غير اننا نلاحظ اليوم عند هاتين الامتين وامثالها من الامم ميلا جديداً الى طريقة التلقين المباشرة والى تنظيم هذا العمل التربيوي ، مما يدل على انها جميعاً تنبهت لاهمية التنظيم المدرسي المركز في احياء الروح القومية .

وعلى كل حال ، سواء أكانت الطريقة المدرسية مباشرة او غير مباشرة ، فمصدر بعثها هو المعلم وحده ، فان كان يشعر الشعور القومي الصحيح امكنه ان يبثه في قلوب طلبته بشتى الطرق والوسائل ، داخل الدروس وخارجها . لان هذه الروح لا تنتشر الا بالعدوى فمتى كانت جراثيمها حية في نفس المعلم ، انتقلت حتما الى نفوس الطلبة لانهم مستعدون

لقبولهـا وليس لهم مناعة ضدها . فالمسؤولية الكبرى في هذا العمل القومي تقع على المعلمين ، بل على السلطة التي تختـار المعلمين . ولذا كان من اهم واجبات السلطات العربية ، في هذا الظرف الدقيق من حياتنا القومية ، ان تحسن اختيار الاشخاص الذين ستوكل اليهم القيام بهذا العمـل الخطير ، فتعتبر الروح القوميـة التي تختلج في صدورهم قبـل النظر الى المعلومـات المحشوة بها ادمغتهم ، او الى قرابتهم من ارباب الحكم وذوي النفوذ . ولست اعني بالروح القومية هنا مجرد الحماسة الملتهبة والشعور المضطرم ، بل العقيدة القومية الصحيحة الجامعة بين عمق التفكير والاندفاع النفسي .

*

هذا فيما يتعلق بالمدرسة . على انه من البديهي ان التربية لا تقتصر على سن الصبـا والفتوة ، بـل تمتـد على الحيـاة بكاملهـا . وفي الحياة العمليـة منظمات ثقافيـة تكمل عمـل المدرسة وتقوم لدى عامة الشعب مقامها . منها : الصحافـة . فهي من اقوى هذه المنظمات واوسعها تأثيراً . ذلك لان اكثرية الامة لا تقرأ المؤلفات الاجتماعية والابحاث الفلسفية ، وانمـا تستمد آراءها ومعتقداتها من الصحافة ، حتى اصبح النـاس

في هذه الايام يشعرون بحاجة الى الجرائد اقوى من حاجتهم الى كثير من متطلبات الحياة المادية . ومما يدلنا على اهمية الصحافة في الحياة القومية محاولة الحكومات الحديثة السيطرة عليها ، او استمالتها على الاقل . نرى هذه المحاولة جلية في فرنسا وانكلترا . على انها اشد ما يكون ظهوراً في روسيا والمانيا وايطاليا وتركيا ، حيث لا توجد صحافة الا تلك التي تنطق باسم الحكومة . وهنا لا بد من القول انه يحسن بنا في جهادنا القومي ان نعتبر خاصة بما يجري في الامم الاخيرة ، لانها مثلنا — تبني حياة قومية جديدة — فهي تظهر لنا صوراً مكبرة وادلة مفصلة على ما يعترضنا من مشاكل وعلى كيفية معالجتها .

والصحافة على نوعين : منها صحافة الاخبار ، وفائدتها من الوجهة القومية انها تعرض امام المرء ما يجري في بلاده من اخبار وحوادث ، فتعرفه بمشاكل امته وتجعله متصلا بمجرى حياتها العامة . واكثر الصحافة العربية من هذا النوع . لكن العمل التثقيفي القومي الاهم لا يتم الا بالنوع الثاني من الصحافة ، وهو صحافة العقائد : تلك التي تدافع عن عقيدة قومية وتسعى لتوجيه تفكير الامة وعملها نحو هذه

العقيدة . ومن المؤسف ان هذا النوع من الصحافة يكاد يكون معدوما في البلاد العربية . فان خرجت جرائدنا ومجلاتنا عن وظيفتها الاخبارية لتبرز وجهة نظر فيها ، كانت وجهة النظر هذه شخصية لا مبدئية . فهي تنطق باسم هذا او ذاك من الاشخاص ، لا باسم هذا المبدأ الواضح او ذاك . فالتربية القومية اذن لا يكتمل بناؤها الا عندما تتوفر الاسباب الثقافية والمادية لصحافتنا حتى ترتفع عن المستوى الذي تعيش فيه ، وتصبح صحافة مبادىء وعقائد بالمعنى الصحيح .

*

ومما يتمم عمل الصحافة ، ويكاد يطغى عليها في الاونة الاخيرة : الراديو . فان هذا الاختراع الحديث قد احتل في الحياة الجديدة مكاناً رفيعاً واحدث فيها تأثيراً بعيداً ، لما للخطابة من اثر في النفس يفوق اثر الكتابة . ونحن نرى ذلك في استخدام السلطات المختلفة للراديو لبث دعاياتها وتكوين رأي عام بين طبقات الامة . وهذه قوة عظيمة لم تستغل في البلاد العربية بعد ، فان المحطات الموجودة لم تستخدم للغايات القومية الصحيحة ، الا في القليل الذي لا يذكر .

*

ومن الوسائل الفعالة للتربية القومية : الاحزاب السياسية .

وهي ـ كالصحافة ـ على نوعين منها الشخصية ، وفائدتها لا توازي ضررها ، كما نرى في معظم الاحزاب المنتشرة في البلاد العربية ، ومنها المبدئيـة التي تستند الى عقيدة سياسية واضحة . والعمل المثمر من ناحية التربية القومية انما يحصل من هذا النوع الثاني ، ويقوى خاصة اذا كان الحزب لا يكتفي بضم الافراد اليه ، بل يحاول ان يهذبهم تهذيباً قومياً صحيحاً بما يدبره من المحاضرات والمباحثات والمشاريع الاجتماعية ، كما تفعل اكثر الاحزاب في البلاد الغربية . ونحن لا نريد الان ان نتطرق الى البحث فيما اذا كان من الافضل لمصلحة الامة ان تكون كلها حزبا واحداً — كما يزعم ارباب السلطة الدكتاتورية — او ان تبقى فيها حرية الاحزاب — كما يحتج اصحاب المبادىء الديموقراطية — فذلك بحث طويل عسير لا يتسع له هذا المجال . وانما نشير في هذا المقام الى فائدة المنظمات السياسية بوجه عام ـ حزبا واحداً ام احزابا متعددة ـ في احياء التربية القومية ونشرها . وهي فائدة جليلة قد عرفتها الامم الغربية — من دكتاتورية وديموقراطية — واحسنت استغلالها .

ويتبع هذه الاحزاب السياسية منظمات الشبان والاحداث

التي تعمد اليها الامم الحديثة لاحياء الشعور القومي ودعمه • فقد نظمت ايطاليا وروسيا افراد الامة من الطفولة الى الرجولة في احزاب متدرجة ، وهي تعتمد على هذه الفتية لحفظ قوميتها ودعم حياتها •

تبين اذن ان هذه الاداة الفعالة في التربية القومية تكاد تكون مفقودة عندنا ، لان احزابنا ـ الا القليل منها ـ لا تتميز بالعقائد الواضحة ، بل بالاختلافات الشخصية والنزعات الفردية • وعلى شباب الامة المفكر ان ينصرف الان الى تقوية الوجهة العقائدية من الاحزاب الحاضرة حتى تتغلب على كل عصبية اخرى ، وان يسعى لتنظيم مؤسسات جديدة تكون مبنية على العقائد الخالصة والمبادىء الواضحة •

لقد ذكرنا ان القومية اوسع من السياسة وارفع شأناً ، وان التربية القومية لا تقتصر على ناحية من الحياة ، بل ترمي الى احياء قوى الامة كلها من سياسية واقتصادية واجتماعية وادبية • هذا العمل الاحيائي في النواحي الخارجة عن السياسة هو من شأن الجمعيات القومية ، فهي تكمل عمل الاحزاب السياسية ، وتستغل قواها ونشاطها لحل هذه المشاكل • فهناك مثلا : الكشاف الذي يرمي الى تقوية الجسم والعقل ، والى تربية

النشء على الاعتماد على النفس والى اكسابه صفات الرجولة بكل ما في هذه الكلمة من معنى : وهذه كلها مزايا قومية يجب ان تنمو وتنتشر في صفوف الامة . وهناك جمعيات الشبان المختلفة التي تربط قلوب الشبيبة ، وتوحد نزعاتها ، وتدربها على التكاتف في العمل المشترك ، والجمعيات النسائية التي ترمي الى الاصلاح الاجتماعي عن طريق المرأة ، وجمعيات الاحسان التي تسعى الى مداواة الفقر وازالة البؤس ، ومؤسسات التهذيب التي تعمل على محاربة الجهل ومقاومة التعصب والبغض . وهناك ايضاً جمعيات مختلفة اخرى كتلك التي تهتم بالتشجير والتحريج ، وانعاش القرية ، وحفظ الاثار والعاديات ، وترقية الآداب والعلوم ، وسواها من نواحي الحياة القومية .

هذه المؤسسات متوفرة في البلاد العربية . لكن اكثرها ليس مطبوعا بالطابع القومي الصحيح ، بل بالطابع الطائفي . ولم تبن القومية الصحيحة يوما على اساس الانقسامات الطائفية ، اذ لا يمكن ان تتفق في وقت واحد العصبية القومية الجامعة المانعة والعصبيات الطائفية المفرقة . فعندنا من منظمات الكشاف : المسلم ، واليهودي ، والماروني ، والارثوذكسي ، وسواها ،

ومن مؤسسات التهذيب : جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية ، وجمعية المعارف الدرزية ، ولجنة المدارس الارثوذكسية ، وما يجري مجراها ، ومن منظمات الشبان : جمعية الشبيبة الاسلامية ، وجمعية الشبان المسيحيين . وكذلك قل عن المنظمات القومية الاخرى ، الا القليل النادر الذي لا يقاس عليه . وغني عن البيان ان قوميتنا لا تبنى وتربيتنا لا تتم ، الا عندما تنتظم هذه الجمعيات كلها على اساس قومي واسع لا على اساس طائفي مقيّد ، فتعمل حينذاك على تربية النشء على الحياة القومية الصحيحة منذ ايامه الاولى .

*

ولا يتسع المجال في هذا المقال لتعديد جميع الوسائل المختلفة التي تعمد اليها الامم الغربية الحاضرة لنشر التربية القومية بين ابنائها . فهذا امر يستغرق دروساً مفصلة ، وابحاثاً مطولة ، لان الحياة عند هذه الامم تكاد تدور كلها على هذا المحور وتوجه الى هذه الغاية . على انه لا يمكننا ان نهمل وسيلة اخيرة لها اهميتها الخاصة وتأثيرها القوي من هذا القبيل ، لكنها تختلف عن الوسائل التي ذكرنا في انها ليست قابلة لنفس التنظيم الممكن في تلك ، ولا تخضع مثلها لتأثير السلطات والقوى الحاكمة . هذه الوسيلة هي البيت . في الحقل البيتي

مجال فسيح للتربية القومية لا يحتاج الى وصف او بيـان .
ويكفي ان نشير الى ما كان لهذا العـامل من اثر في تكوين
بعض الامم او في حفظها خلال العصور . فان بولونيـا ظلت
زمنـاً طويـلا مقسمة مجزأة بـين دول ثلاث تسومهـا الذل
والاستعباد ، لكنها ظلت محتفظة بقوميتها لان الوالدين البولونيين
كانا لا ينقطعان عن تذكير ابنائهما بامتهم وقوميتهم وبتاريخهم
المجيـد واستقلالهم المنشود ، الى ان جاءت الفرصة المنـاسبة
فانبعثت القومية البولونية بقوة جديدة وحياة ناضرة . وليس
من ينكر ايضاً ما كان للتربية البيتية من أثر في حفظ العنصر
اليهودي وبعث القومية اليهودية بعد ان تفرق اليهود في انحاء
المعمور وذاقوا ما ذاقوه من الوان العذاب والاضطهاد . غير
ان هذا النوع من التربية القومية لا يتأتى الا بعد ان يتهذب
الوالدان تهذيباً قومياً صحيحاً ، وبعـد ان تتثقف الام بصفة
خاصة ، لما للام من التأثير في تنشئة الولد وتكوين روحه .

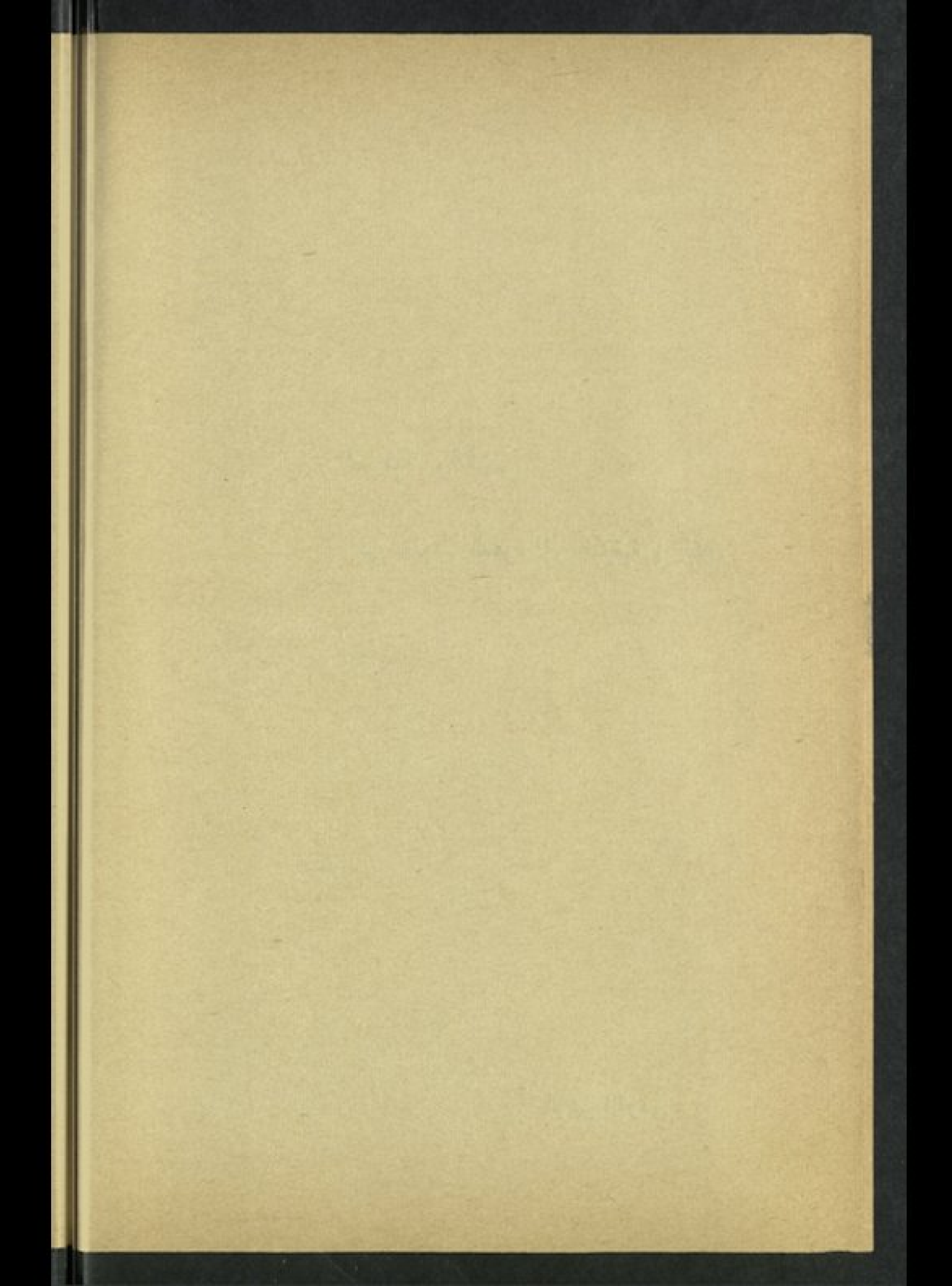
*

لست ادعي اني وفيت هـذا الموضوع الجليـل حقـه من
البحث والاستقراء ، فمجال القول فيه واسع متشعب . وقد
تنبهت اليه الامم الحديثة كافة فاحلته مكاناً رفيعاً في حياتها ،

نخص بالذكر منها - كما ورد سابقاً - تلك الامم التي تبني اليوم نظماً قومية جديدة . فان الحياة كلها عند هذه الامم موجهة الى تربية افراد الامة جميعهم ، تربية تكفل تحقيق هذه النظم القومية . وخليق بنا — ونحن في بدء عهدنا الاستقلالي — ان نوجه اهتمامنا الى هذه الناحية الخطيرة من حياتنا كي نتمكن من الاحتفاظ بالقليل الذي حزناه من هذا الاستقلال ومن استثماره لتأمين اوسع عيشة واكملها لافراد الامة جميعاً . وهذا واجب يقع على عاتق زعماء الامة ومفكريها ، وعلى الشبان منهم خاصة لانهم قادة الغد وبناة المستقبل . ولقد صدق العلامة الاستاذ شارل مريام — وهو من كبار الباحثين في التربية القومية وفي مقدمة الذين اعتمدتهم في هذا البحث — حينما قال : « ليس هناك عمل اجل من التربية القومية واعظم خطراً يجابه العلماء الذين يعالجون العلاقات البشرية ، او القادة الذين يبنون امم المستقبل . »

# القومية والجنس

## على هامش الدعوة الى الفينيقية في لبنان



تطغى على لبنان اليوم موجات فكرية عنيفة تتلاطم بقوة وصخب في بحر حياته المائج . ولا شك في ان ابلغ هذه الموجات اثراً تلك التي تثيرها الفِكر القومية المختلفة المستمدة قواها من تيارات التاريخ الموروث من جهة ، والمبادئ السياسية والاجتماعية والعقلية المتدفقة من الغرب من جهة اخرى . من هذه الفكر القومية فكرة الفينيقية التي يدعو اليها فريق من الناس ويعملون لبناء حاضر لبنان ومستقبله على اساسها . هذه الفكرة تصطدم بالعقيدة العربية الجامعة وبسواها من العقائد القومية فتخلق في لبنان جواً مضطربا مبلبلا ، وتقسم ابناءه شيعاً متفرقة واحزاباً متنافرة . فاذا كان لبنان بحاجة الى شيء في هذا الطور الانتقالي العصيب من حياته ، فالى تصفية هذا الجوّ ، والاستقرار على عقيدة قومية صحيحة تنصهر فيها عواطف اهل لبنان كافة وتتوحد آمالهم وامانيهم .

ولست اطمع الآن في ان افي هذا الموضوع الواسع المتشعب حقه من الدرس والاستقصاء . اذ ان دون ذلك دروسا دقيقة في القومية واسسها ، وفي تاريخ لبنان وشعوبه ، وفي الروابط التي تربطه بما جاوره من الاقطار ، وفي المستقبل

الذي يتطلع اليه : وكلها مشاكل صعبة المنال لا قبل لي بحلها — حتى ولا بمجابهتها مجابهة تامة — في بحث عام مقتضب كهذا . وانما هي كلمة صغيرة في الاساس الذي نبني عليه غالباً عقيدتنا القومية اوجهها الى الذين يحاولون مجابهة هذه المشاكل ومعالجتها ، ويعانون التفكير والعمل في الميدان القومي ، لعلها تكون ذات فائدة في ايضاح الافكار وجلو العقائد والآراء .

في لبنان اليوم فريق يقول : نحن فينيقيون قد تحدرنا من ذلك الشعب الذي سكن لبنان منذ اقدم الازمان ، وخرج منه الى الشواطئ القريبة والبعيدة متاجراً ومستعمراً . نعم ! — يقول هؤلاء — لقد دخل لبنان بعد الفينيقيين شعوب عديدة : من آراميين ، وعرب ، وافرنج ، وسواهم ، ولكنهم جميعاً — والعرب منهم — كانوا اقلية لم تبق في البلاد اثراً يذكر ، فظل العنصر الفينيقي سائداً ، وما يزال !

وبين المتحمسين للعروبة من يقول : ان الدم السائد في لبنان هو الدم العربي . فالعرب تسربوا الى هذه البلاد في قديم الزمان ، ثم افتتحوها في القرن السابع وانتشروا فيها انتشاراً واسعاً ، فسادوا « عنصريا » عليها ، وامتص « الجنس » العربي الاجناس التي كانت قد استوطنتها قبله ، وصبغ لبنان صبغاً

بشريا جديدا .

وكأني بالفريقين يعنيان بالعرب والفينيقيين عنصرين او جنسين مختلفين يتمايزان بخصائصهما الطبيعية . وهذا يظهر بوضوح من ترديد اكثرهم : « دمنا فينيقي » ، او « دمنا عربي » ، كأن لكل من هذين الشعبين « دماً » خاصاً ، به يتفرد ويتميز عن الشعب الاخر .

فلنلق نظرة عامة على الشعوب التي نزلت لبنان منذ اقدم الازمنة ، لنرى ايا من هذين الفريقين اقوى حجة واصدق مقالا ، ولنتبين لون « الدم » الذي يجري في عروق اهل البلاد .

*

يميل الثقات من الباحثين الى القول بان لبنان ـ او ساحله على الاقل ـ كانت تقطنه قبل التاريخ شعوب العصور الحجرية القديمة والحديثة التي كانت ـ على ما يظهر ـ تمتاز بطول رؤوسها . ويرجح انه دخله فيما بعد ـ في اواخر العصور الحجرية الحديثة ـ شعب مستدير الرأس تسرب اليه من الشمال الشرقي واحتل بعض تلاله . ثم قبل التاريخ بقليل تدفقت على بلدان الهلال الخصيب اول موجة من الموجات السامية حاملة اليها عنصراً بشرياً جديداً . وتتابعت بعدئذ

هذه الموجات على هذه البلدان ، ومن بينها لبنان ، في ادوار شبه منتظمة خلال العصور التاريخية القديمة والوسطى . وكان مهدها جميعاً — من فينيقية وسواها — الجزيرة العربية . وهذه حقيقة يجب ان نذكرها وتتدبر معناها .

اقدم الموجات السامية المعروفة التي تدفقت على لبنان هي تلك التي حملت اليه الشعب الفينيقي . نزل هذا الشعب الساحل وتسرب الى ما لاصقه من الجبال ، وخرج من موطنه الضيق الى البحار الواسعة ، فاتصل بتجارته بالبلدان المجاورة والقصية . وفي هذه الحقبة التي ساد فيها لبنان دخلت هذا البلد بعض عناصر سامية اخرى في الغزوات المصرية ، والبابلية ، والاشورية . ولكن هؤلاء الغزاة اكتفوا في الاغلب بالسيادة السياسية ، ولم يمتزجوا بالسكان امتزاجاً واسع النطاق ، فكان اثرهم الجنسي ضئيلا . ومثله في الضآلة اثر شعوب اخرى اصاب رشاشها لبنان : كالملوك الرعاة ( Hyksos ) ، والحثيين ، والفلسطينيين ، وسواهم من الشعوب التي مرت في لبنان او قريباً منه في طريقها الى الجنوب . ولئن كان اصل بعض هذه الشعوب لا يزال غامضاً ، فمن المتفق عليه انها كلها غير سامية .

ثم تلا هؤلاء فاتحون آخرون آريو الاصل كان لهم

بعض الاثر البشري في هذه البلاد : كالفرس ، واليونان ، والرومان . ولكن الشعب الارامي ، السامي الاصل ، الذي كان قد تدفق على الداخل في موجة كبيرة واسعة قبل ذلك بمئات من السنين تغلغل في هذه الحقبة في لبنان حتى اصبح عنصراً متغلباً فيه .

وجاء دور العرب تحملهم موجة الفتح في القرن السابع . وكانوا قد تسربوا ايضاً قبل ذلك بطرق شتى : بالتجارة التي كانت تنقلهم من جزيرتهم الى اكثر نواحي الشرق الادنى ، وبتجندهم في جيوش اليونان والرومان الذين كانوا قد بسطوا نفوذهم على هذه البلاد ، وبالدويلات التي اسسوها وامتد سلطانها على قسم من اراضي لبنان : كالايطوريين الذين تولوا الجبل الشرقي والبقاع مع بعلبك ، وكالغساسنة الذين بلغ حكمهم الى سفوح الجبل الشرقي ايضاً .

وليس هذا التسرب العربي الى لبنان والى غيره من مناطق الهلال الخصيب غريباً ، بل الغريب ان لا يحدث . فان الحدود بين الصحراء وبين هذه المناطق الخصبة المحيطة بها لم تغلق في يوم من الايام ، وانما كانت - ولا تزال - مفتوحة يمر منها العرب على الدوام بتدفق وانفجار حيناً ،

وبتسرب بطيء خفي احياناً . ولولا ان شيئاً من هذا قد حصل ، وتأثر لبنان بما تأثرت به البلدان المجاورة من العنصر العربي ، لما استطاع العرب في زمن الفتح ان يحتلوا البلاد بهذا اليسر وان تكون وطأتهم على سكانها بهذه الخفة والرفق .

وقد حملت الفتوح معها عنصراً عربياً غير ضئيل استقر في البلاد ، ودام تسرب العرب دون انقطاع ، ونزحت الى لبنان قبائل عربية معروفة ( وكان بعضها قد بدأ يدخل حتى قبل الاسلام ) : كعاملة في الجنوب ، وتيم الله بن ثعلبة في وادي التيم ، وتنوخ في الشمال ، وسواها . « وقد جاء في كتاب البلدان لليعقوبي ان لبنان المجاور لصيداء كان يسكنه قوم من قريش ومن اهل اليمن » ( لامنس ، المشرق ، م ٥ ، ١٩٠٢ ، ص ٨٢٥ ) .

كذلك دخل لبنان في العهد العربي عناصر اخرى غير سامية : كالمردة الذين انحدروا من جبال آسيا الصغرى ، والعجم الذين انزلهم معاوية شواطىء الشام . ثم تلتها تلك العناصر الاخرى — من تركية ، وكردية ، وسواها — التي برزت الى الوجود في العصور المتأخرة على عهد الدويلات

المستقلة في الشام ومصر . وعقبها الافرنج الصليبيون الذين استقر فريق منهم في البلاد نحو قرنين من الزمن ، واخيراً الاتراك العثمانيون الذين لا يمكن ان يقال انهم حكموا لبنان اربعمائة سنة دون ان يتركوا فيه - وفي ساحله على الاخص - اثراً بشريا يذكر .

هذه نظرة عجلى في العناصر التي تتالت على لبنان ، لا ادعي لها تمام الاحاطة او عمق الاستقصاء . ويحسن بنا ان نلاحظ هنا على كل حال ان هذا التاريخ البشري للبنان ينطبق على ساحله اكثر منه على جبله . فاننا لا نعلم عن سكان الجبل نفسه الا نتفاً لا تصلح لان تكون اساساً لتاريخ بشري صحيح لهذا الجبل . فقد كان في اكثر العصور القديمة والمتوسطة مغطى بالاحراج لا يستقر فيه الفاتحون ، ولا يؤمه منهم الا الجماعات المتفرقة القليلة التي يصعب تقدير اثرها من الوجهة الجنسية . غير ان هذه العجالة ، على ايجازها ونقصها ، تظهر لنا ثلاث حقائق رئيسية :

١ - ان سكان هذا القطر - كغيره من الاقطار المجاورة - لا يمتون الى شعب واحد ، بل يتحدرون من شعوب شتى وامم مختلفة .

٢ ـ ان الشعوب الغالبة عليه هي الشعوب السامية : الفينيقيون اولا ، ثم الآراميون ، ثم العرب . وهي كلها قد تدفقت عليه من الجزيرة العربية . تتلوها ـ بدرجة ادنى كثيراً ـ الشعوب الآرية : من عجم ، ويونان ، ورومان ، وافرنج ، ثم الشعوب التركية المغولية .

٣ ـ ان العرب لم يكونوا اقلية ضئيلة ليست ذات خطر في تكوين لبنان البشري ، بل كانوا عنصراً له خطره ومقامه بين العناصر التي تؤلف سكان هذا القطر . ويستقر هذا في روعنا اذا ذكرنا الحقيقة الهامة التي اشرنا اليها فيما سبق : وهي ان الصحراء تلقي بسكانها الى ما يحيط بها من البلدان الخصبة دوماً دون انقطاع .

*

ولكن ، اين يؤدي بنا هذا كله ؟ ما هو « جنس » سكان لبنان اليوم ، وما لون دمهم ؟

الواقع ان تقسيم شعوب لبنان الى عربية وفينيقية وآرامية لا يتفق والمعنى الذي يفهمه العلماء من « الجنس » اليوم . فان الثقات من هؤلاء العلماء يميلون الى تقسيم سكان الارض الى ثلاثة اقسام رئيسية : الابيض القوقازي ( Caucasian ) ، والمغولي ( Mongoloid ) ، والاسود ( Negroid ) . ثم

يقسمون الاول منها الى اربعة اجناس : الشمالي ( Nordic )، والالبي ( Alpine ) ، والمتوسط ( Mediterranean ) ، والعنصر الآري من الشعوب الهندية . ويشمل الجنس الثالث شعوب حوض البحر المتوسط في القارات الثلاث : ومنها الشعوب السامية على الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط ، والحامية في شمالي افريقيا ، وقسم من سكان اليونان وايطاليا . وهذه الاقسام والاجناس والشعوب تتمايز فيما بينها بخصائص طبيعية معينة كطول الرأس او استدارته ، او لون البشرة والعينين ، او هيئة شعر الرأس ولونه ، او تركيب الدم ، او سواها مما لا يظهر بهذا الوضوح . ذلك ان « الجنس » (Race) يقوم - بمعناه الصحيح - على هذه الخصائص البيولوجية الصرف ، دون سواها من الاعتبارات اللغوية او الجغرافية او الاجتماعية .

وعلى هذا تكون الشعوب التي دخلت لبنان وكونت سكانه الحاليين تنتمي - بالدرجة الاولى - الى جنس البحر المتوسط من القسم القوقازي ، ثم الى الجنس الالبي وقليلا الى الجنس الشمالي من هذا القسم ايضاً ، والى القسم المغولي بدرجة ادنى كثيراً . وعلى هذا ايضاً ، لا يكون ثمة فرق

بين « الدم » العربي و « الدم » الفينيقي ، لان الدم مرتبط بالجنس ، وليس هناك ما يفرق « جنسياً » بين العرب والفينيقيين ، وانما ينتميان كلاهما الى فرع واحد من جنس واحد .

زد الى ذلك ان كلا الفينيقيين والعرب لم يحافظوا بعد ان نزلوا هذه البلاد على النقاوة الجنسية النسبية التي كانت لهم عند خروجهم من الجزيرة العربية ، بل امتزجوا بالسكان السابقين امتزاجا عظيما اختلط به دمهم وجنسهم ، ولم يعد ممكناً معه ان نتحدث عنهم كوحدات جنسية ، بل كوحدات سياسية ، او اجتماعية ، او ثقافية فحسب .

*

حتى لو كان العرب والفينيقيون ينتمون الى فرعين مختلفين من جنس واحد او الى جنسين متباينين ، وحتى لو كانوا حافظوا على نقاوتهم الجنسية والدموية ، فهل يمنعهم ذلك من ان يندمجوا في قومية واحدة جامعة ؟ لا ! فما كانت القومية يوما لتبنى على حجم جمجمة الرأس ، او لون البشرة ، او تركيب الشعر ، بل على اسس اجتماعية وعقلية وروحية اقوى أثراً في تكوين الامم . نظرة واحدة الى فرنسا : تلك الامة التي يضرب بها المثل في التماسك القومي والوحدة الوطنية ،

ز - ان سكانها يتألفون من اجناس ثلاثة من القسم القوقازي : شماليون في الشمال ، والبيون في الوسط ، ومتوسطون في الجنوب . بين هذه الاجناس الثلاثة من الفروق البشرية ما لا نجده بين العرب والفينيقيين المتحدرين كليهما من فرع واحد من جنس واحد .

فلنهتك اذاً حجاب « الجنس » الذي يمنع الضياء عن تفكيرنا القومي ، ولنطرد شبح « الدم » الذي يسيطر على ابحاثنا ومجادلاتنا ، ولننظر الى ما هو اهم منهما وافعل في تكوين القومية الصحيحة .

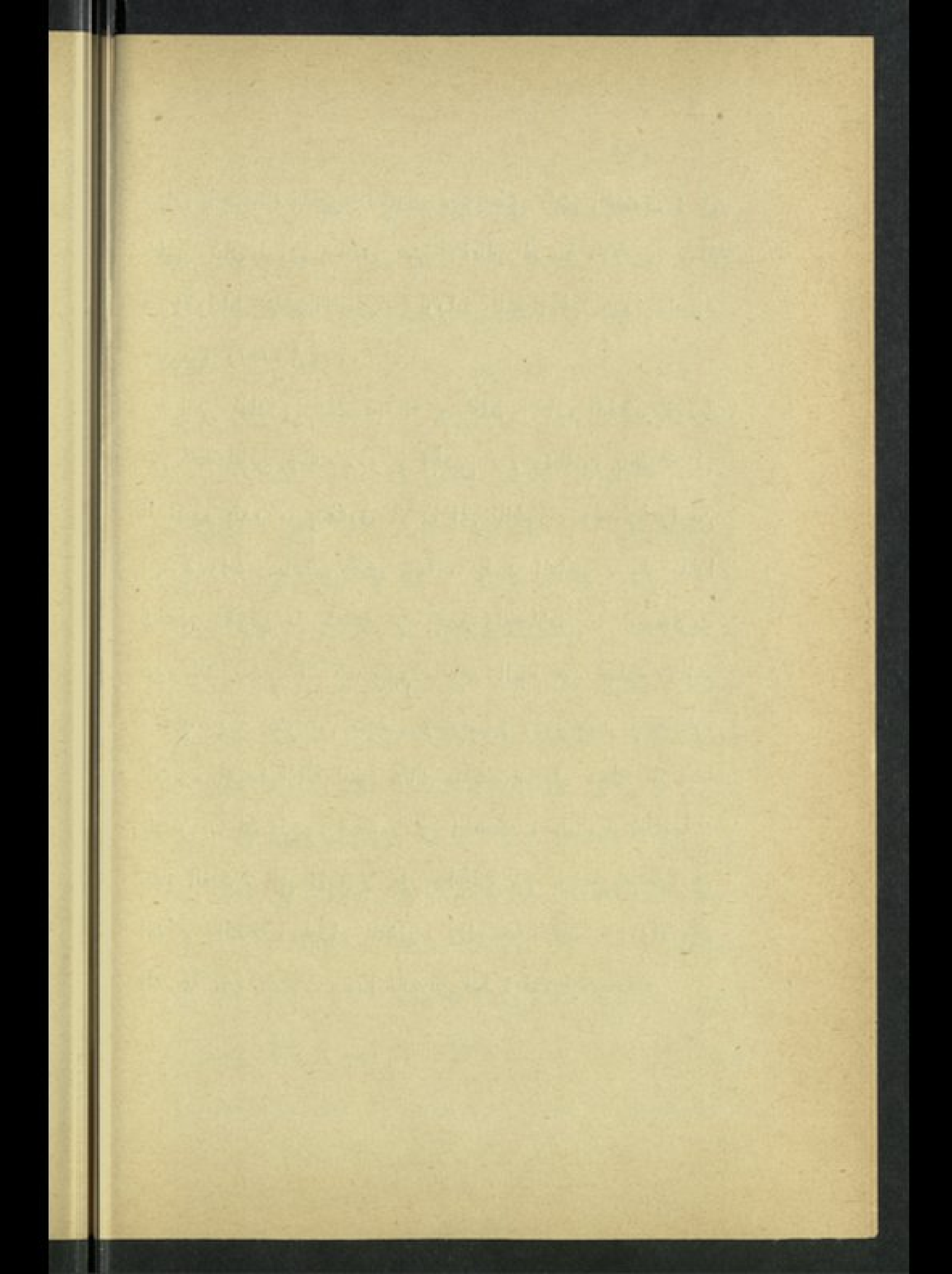
لننظر الى اللغة ، والثقافة ، والعادات ، والذكريات التاريخية ، والمصلحة الحاضرة والمستقبلة . ليس بامكاني ، في هذا المجال الضيق ، ان احيط بهذه الاسس التي تبنى عليها القومية ، اذ ان كلا منها يحتاج الى مقال خاص يتبعه بحثاً وتحليلا . ولكنني لا استطيع ان اختم هذه الكلمة دون ملاحظة واحدة ابديها عن الاتجاه العقلي الذي ننظر به الى هذه الاسس عند بناء عقيدتنا القومية .

اكثر ما نتجه عند تفكيرنا في المسائل القومية الى الماضي ، لا الى المستقبل . نتجادل في اصلنا ، وجنسنا ، وما

كان عليه اجدادنا ، وما حدث بين اقطارنا من العلاقات التاريخية - الى غير هذا مما نفكر ونقول ونحن ملتفتون الى الوراء ، بدلا من ان نكون متطلعين الى الامام . وليس لي — وانا من طلبة التاريخ مهنة — ان اقلل من اهمية التاريخ ، او ان اضع من قيمة من يستمد من الماضي عوناً على فهم الحاضر . ولكنني اخشى ان هذه العقلية التاريخية قد تغلبت علينا ، واحتلت من تفكيرنا مكاناً ارفع مما تستحق ، وانه يجدر بنا ان نتوجه — اكثر مما فعلنا ونفعل — الى المستقبل الآتي ، لنستمد منه صورة الحياة التي نريد ان نحياها . عندها تصبح لهذه الصورة قوة تفرض نفسها علينا ، وهيئة تكيّف تفكيرنا . عندها لا يكتفي اللبناني بان يسأل نفسه : « ما هي اللغة التي ورثتها عن اجدادي : الفينيقية إم العربية ؟ » ، بل يزيد بالحاح : « ما هي اللغة التي اريد ويهمني ان اتكلم بها واتخذها اداة لحضارتي الآن وفي المستقبل ؟ » . ولا تضطرب نفسه بهذه المسألة : « ما هي ثقافتي ، أفينيقية أم عربية ؟ » فحسب ، بل يتلمس طريقه ليجيب عن سؤال آخر : « اي اتجاه اريد ان اتجه بثقافتي : الاتجاه الفينيقي ام العربي ؟ » . واخيراً - وهنا بيت القصيد -

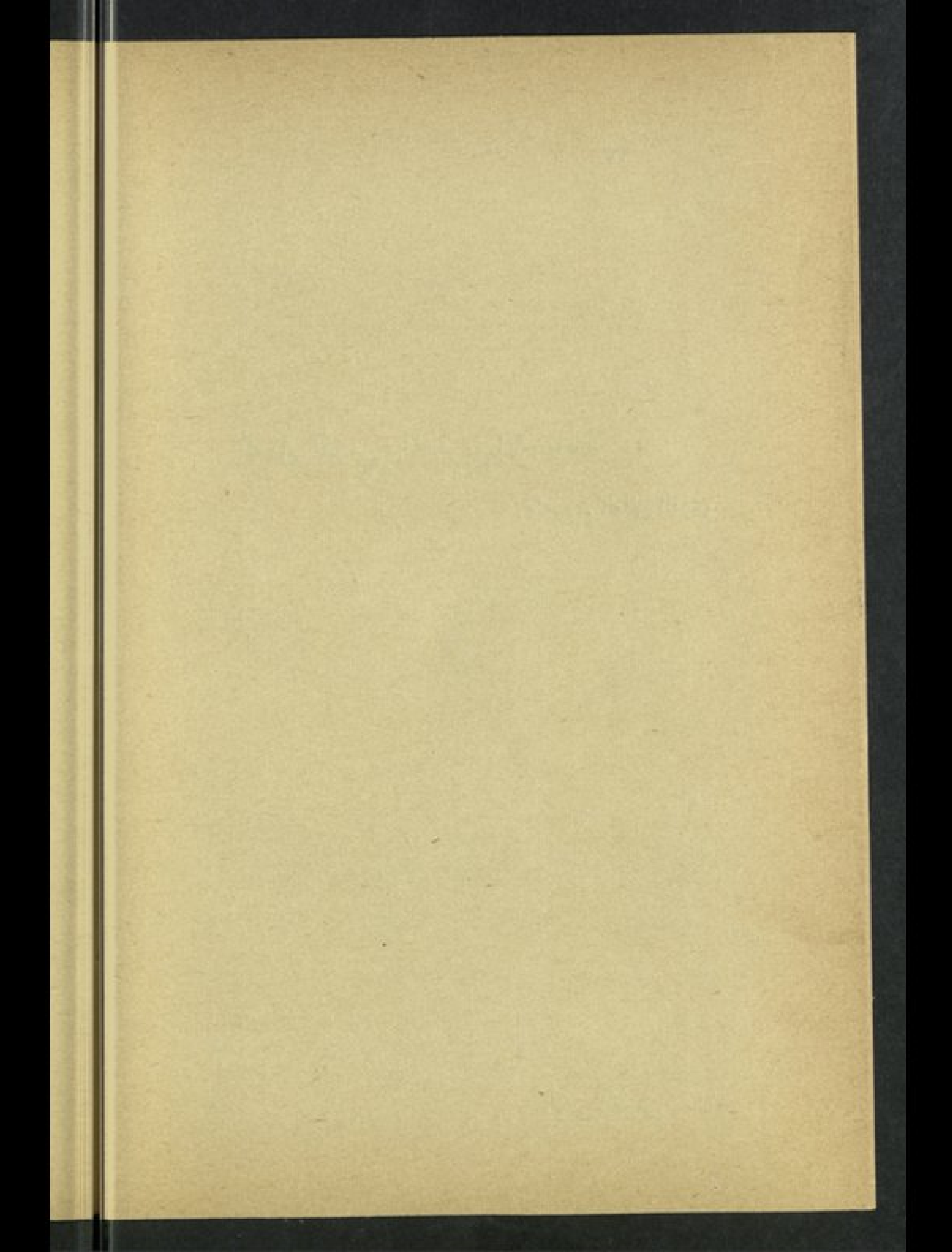
« ان اجد مصلحتي الكبرى ، واحقق غايتي القصوى : في خلق كيان لبناني مستقل عن الاقطار العربية الاخرى ، ام في الارتباط بتلك الاقطار ارتباط المشترك في جهاد واحد وحياة واحدة ؟ » .

ليس يخامرني شك في انه لو تخلص اصحاب العقائد القومية من كابوس « الدم » و « الجنس » ، وتطلعوا بنظرهم الى المستقبل بقدر ما يلتفتون الآن الى الماضي ، ولو ترفعوا عن المهاترة والجدل العقيم الذي غالباً ما يفسد ابحاثهم ، ولو بذلوا للتفكير القومي ما يتطلبه من تجرد واخلاص - لو توفرت هذه الشروط - لما كان بينهم ما نجد اليوم من تصادم وتنازع وما يصحب ذلك من صخب وضجيج ، ولوجد اصحاب الفكرة الفينيقية انه ليس هناك ما يمنع - بل هناك كل ما يفرض - ان يذيبوا فكرتهم في الفكرة العربية الجامعة : هذه الفكرة التي تقوم لا على « الجنس » ، بل على الوحدة في اللغة ، والثقافة ، والجهاد الماضي ، والمصلحة الحاضرة ، والآمال المشرقة الى الامام . وهذا شأن كل فكرة قومية صحيحة .



# العمل القومي والمشاريع الاجتماعية

## مشروع انعاش القرى



في البلاد العربية كثير من المشاريع الاجتماعية يقوم بها الشباب وغير الشباب ، ويقصدون بها الى معالجة هذه او تلك من مشاكل الحياة العامة : من الاحسان الى الفقير والمحتاج ، الى تخفيف الم المريض ، الى ايواء اليتيم ، الى تعليم الامي ، الى سواها من الاعمال الاجتماعية التي تفيض فيها عواطف المحبة والرحمة من صدور العاملين من ابناء الامة . ومن الخير ان تمتد هذه المشاريع وتعم ، وان تتعدد النواحي التي تنصرف اليها . ومن الخير كذلك ان تزداد العواطف الروحية التي تدفع اليها غزارة وغنى ونقاوة ، وان تتعمق منابعها في قلوب ابناء الامة وتتوسع . ففي هذا كله ما يسهل للامة سبل نهضتها ، ويرفع مستواها الاجتماعي والعقلي .

على انه من الخير ، مع هذا وذاك ، ان يعمد القائمون بكل مشروع من هذه المشاريع الى التساؤل - بجد واخلاص وتهيب - عن مغزى العمل الذي يضطلعون باعبائه ، وان يحاولوا دائماً ايضاح الغاية التي يقصدون به اليها ، والمقام الذي يجب ان يكون له في حياتنا الحاضرة . فكل عمل - مهما كان

شأنه ـ يقوم به المرء لا يكتسب قيمته ومعناه ، الا اذا ادخله صاحبه في دائرة عقيدته وفلسفته في الحياة ، وربط غايته بالغاية القصوى التي اليها يسعى ومن اجلها يعيش .

ولست ارى غير الغاية القومية غاية يصح ان نتخذها ، في هذا الطور من حياتنا ، هدفاً نوجه اليه جهودنا الفردية والاجتماعية . فكل مشروع اجتماعي يجب ان يعالج ناحية من الحياة القومية ، وان يرتبط في غايته ووسائله بالعمل القومي الذي يرمي الى النهوض بالامة الى ارفع الدرجات واقربها الى الحياة المثلى . فكأني بهذه المشاريع الاجتماعية المختلفة جداول تنبع من مراكز متعددة ، فتمر في طريقها بنواح من الحياة العامة تبعث فيها القوة والنشاط ، ولكنها تظل متصلة فيما بينها ، ولا تزال تترافد وتتقارب حتى تتحد اخيراً في المجرى الرئيسي الذي يجمعها ، والذي من اجله وجدت واليه تعود .

وقد كان لي حظ العمل تحت لواء مشروع انعاش القرى الذي يسعى الى اصلاح الحياة الريفية في البلاد العربية ، فنظرت الى هذا المشروع كمشروع قومي في جوهره وروحه ، واوضحت لنفسي العلاقة التي يجب ان تربطه بالفكرة القومية وسبل تحقيقها . ولست ادري ما اذا كان جميع العاملين في هذا وامثاله

من المشاريع يقرونني على ذلك ، ولكنني ادري ، واشعر شعور اقتناع ويقين ، ان هذه هي الروح التي يجب ان تشيع فيه ، بل في كل مشروع اجتماعي عربي ، وانها هي وحدها كفيلة بان تبعث في هذه المشاريع قوة الحياة ونضرتها ، وتؤمن لها النجاح الحق والنفع الجزيل .

*

ان غاية النهضة القوميسة هي رفع مستوى الحيـاة العربيـة بجميع نواحيهـا . فهي لا تقتصر على نيـل الحرية الخارجيـة والاستقلال السياسي ، بل ترمي الى أبعد من هـذا بكثير : الى تحرير افراد الامة من القيود الداخلية ، الى توفير اكبر قسط من السعادة والهناء لهم جميعاً ، الى كمال حياتهم الجسدية والعقلية والروحية . فكل عمل يتجه نحو هذه الغاية الشاملة ، ويحاول تحقيقها في ناحية من نواحي الحياة ، او عند فريق من افراد الامة ، هو عمل قومي في هدفه ومغزاه . وهنيئاً للامة التي تكون جميع اعمالها منظمة وموجهة الى غايتها القومية الوحيدة : فلا يكون بين جهودها تضارب او تنافر ، ولا في سريان حياتها ضياع او خسران .

ومن هذا يتبين ان مشروع انعاش القرى الذي اخذ على

عاتقه خدمة الفلاح العربي وانهاضه الى مستوى الحياة الفنية الكاملة ، لا ينفصل في غايته عن الفكرة القومية ، بل هو منها في الصميم : بها يقوى ومن اجلها يعيش ، وانه ينتظم مع سواه من المشاريع الاجتماعية والثقافية في هذه الرابطة القومية التي توحدها جميعاً وتوفق بين جهودها ومراميها .

وليس يكفي ان نقول ان الاعمال التي يقوم بها مشروع انعاش القرى وامثاله اعمال « انسانية » تدعو اليها عاطفة الشفقة والحنان ، ويحدوها حدب الغني على الفقير ، ورأفة العالم بالجاهل ، وعطف القوي على الضعيف . فلقد تبددت هذه العواطف « الانسانية » في عصر القوميات المتطاحنة الذي نعيش فيه ، وغدا واجباً علينا ان نصهر جميع عواطفنا ومساعينا في بوتقة الجهاد القومي الموحد . فليس يعطف احدنا على الفلاح ، لانه فلاح فحسب ، بل لانه فلاح عربي تربطنا به رابطة الوطن ، ويدفعنا للعمل من اجله الواجب القومي الذي يجعل الفرد منا مسؤولا عن امته اولا ، ويضع مصلحة الوطن قبل اية مصلحة اخرى .

*

هذا من حيث الغاية . اما الوسائل التي يتبعها المشروع ،

فهي ، كغايته ، مستوحاة من الفكرة القومية المثلى ومجارية لنهضة الامة الصحيحة . ذلك ان كل نهضة قومية لا يشترك بها الشعب - او قل لا تقوم على الشعب - لا يمكن ان تدوم . ولقد كنا ولا نزال في هذا الشرق العربي ننتظر كل اصلاح وتقدم من جانب الحكومة غير شاعرين بأية مسؤولية تجاه وطننا وامتنا ، ونلقي على السلطات القائمة تبعة كل تأخر او تقصير دون ان نبذل اي جهد فعال لمداواة العلة واصلاح الحال . ولو اننا درسنا النهضات القومية عند الامم الحية لوجدنا انها لا تتم على الوجه الاكمل الا عندما يتلاقى العمل الحكومي المتجه من الاعلى الى الادنى والجهود الشعبية المنبثقة من صميم الامة والناهضة بها الى مراقي الحضارة والعمران . من اجل هذا ، وجب ان نرحب اليوم بمشروع انعاش القرى وامثاله من المشاريع الاحيائية التي يشارك فيها الشعب الحكومة في مسؤولية العمل وواجب الاصلاح . فان الفرد الذي يخرج منا الى القرية ليقوم بواجبه في انهاض مواطنه الفلاح ، يحقق بعمله هذا وجهاً من وجوه النهضة القومية ، ويصيب معنى من معانيها السامية ، اذ يسير بالامة الى تلك الحالة المثلى التي يتعاون فيها ابناء الامة جميعاً على

رفع بلادهم وتحرير اجسادهم وعقولهم ونفوسهم .

ويعظم خطر هذه النهضة الشعبية عندما يكون بادئها وباعثها الشباب العربي المثقف . فلقد كان علمنا ، ولا يزال الى حد بعيد ، عبئاً ثقيلا نحمله على ظهورنا . ولم يصب امتنا منه الا النفع اليسير ، حتى كاد يصح فينا معنى الحديث الشريف : « اشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه » . فاذا أقبل اليوم الشباب المتعلم على المشاريع الاصلاحية كمشروع انعاش القرى ، ودخل الميدان الذي تفسحه له للمساهمة في النهضة القومية ، أصبح لعلمه معنى وقوة وحياة ، وشعت ثقافته في الشعب فاستفادت منها الامة واغتنت البلاد . وليس عبثاً اذن ان اتخذ مشروع انعاش القرى شعاره : « من الشباب المثقف الى الفلاح » . ففي هذا الشعار معاني المسؤولية التي أخذ يشعر بها الشباب ، والروح العملية المخلصة التي يجب ان تتجلى في ثقافته ، واستعداده للانصهار التام في بوتقة الامة ورابطتها العظمى . فيه ، على الجملة ، معنى من أبرز معاني النهضة القومية : هو شياعها من افراد الشعب – والمتعلمين المثقفين منهم خاصة – وفيضانها من صميم قلوبهم وأرواحهم .

ثم هناك وجه آخر للمشروع له خطورته الخاصة من الناحية القومية . ذلك هو توحيده بين الشباب العربي على اختلاف طوائفه وعقائده ونزعاته الخاصة او العامة . فان المثل الاعلى الذي يتوجه هذا المشروع اليه يؤلف بين جميع العاملين فيه ويجعلهم قلباً واحداً ونفساً واحدة في الجهاد في سبيله .

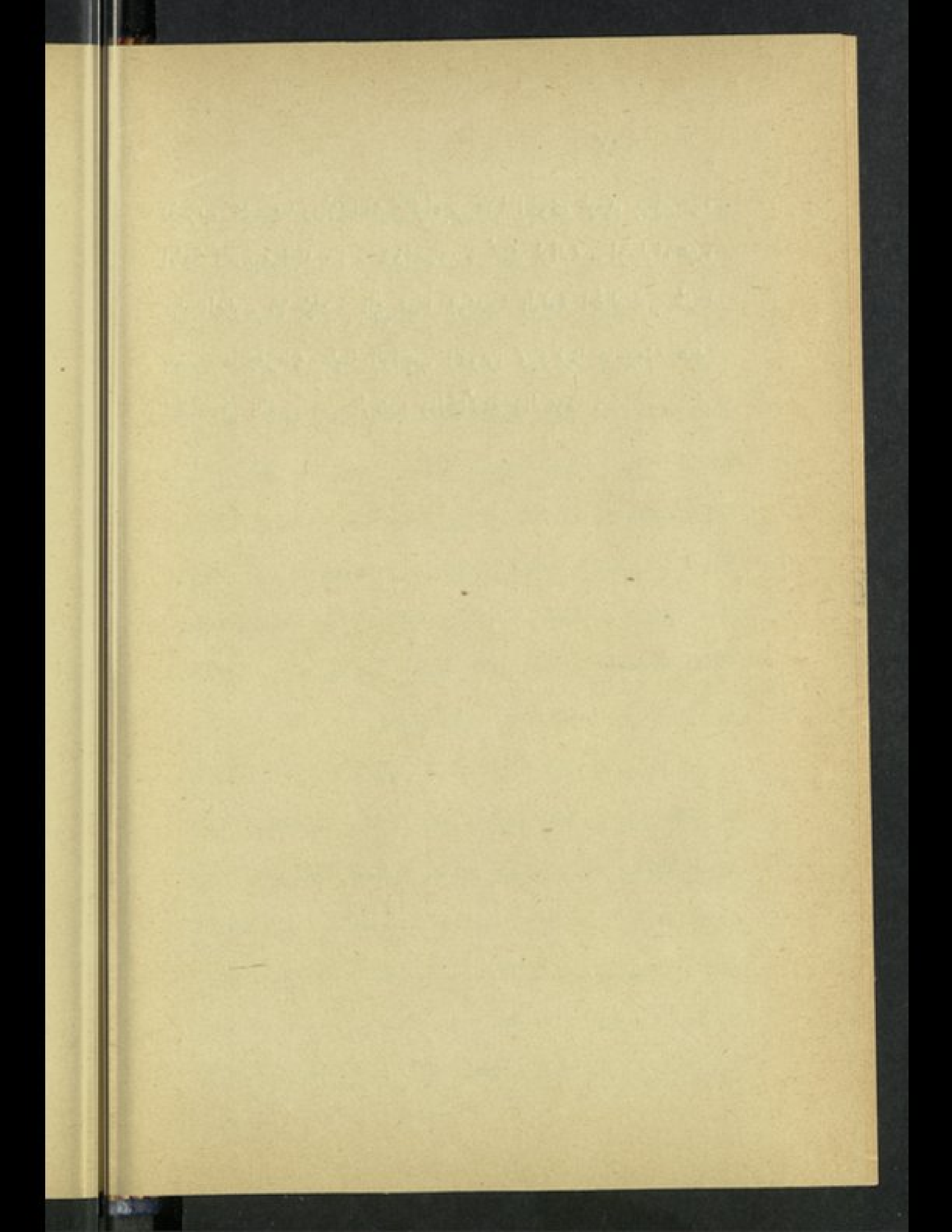
ونحن الذين أثقل الدهر عاتقنا بشتى الانقسامات الطائفية ، والعائلية ، والعنصرية ، وسواها من العصبيات التي تقف عقبات كؤود في وجه انتظامنا القومي ، نحن الذين قسمتنا أنواع الحزبيات الهدامة شيعاً متنازعة وفرقاً متناحرة ، خليقون بان نستمد من مشروع انعاش القرى وامثاله معنى العمل القومي الموحد الذي تذوب فيه كل شهوة خاصة وتضمحل كل نزعة حزبية . وها ان تاريخ هذا المشروع ليشهد باجلى برهان على هذا التآخي الذي يربط جميع العاملين فيه ، وعلى هذا الارتباط الوثيق الذي يؤلف بين قلوبهم ويجمع جهودهم ومساعيهم .

هذه هي بعض النواحي القومية في مشروع انعاش القرى . ولست أنكر أن عملا يضع امامه هذه الغاية السامية الخ مة ليتطلب جهوداً عظمى وصفات روحية خاصة ليرتفع

الى المستوى الذي يصبو اليه ويؤدي الرسالة التي ينشدها . من هنا وجب على القائمين بهذا المشروع ان يظلوا أبداً متطلعين الى هذه الغاية القومية السامية ، وان ينفخوا في عملهم كل ما في نفوسهم من همة وتضحية واخلاص ، حتى لا يمسه قلب من هذه القلوب اليافعة التي تقبل على التطوع فيه الا ويلتهب بروحه ويتطهر باكسيره ، ويستمد منه صفات النشاط والتجرد والاخلاص التي يتطلبها العمل القومي المنتج . فاذا لم يكن لمشروع انعاش القرى من فائدة الا ان ينمي هذه الصفات في قلوب العاملين فيه ويلقي في نفوسهم معنى الخدمة الصحيحة ، لكفى ذلك لينهض به الى مرتبته الرفيعة في سلم جهادنا ، ويحله المحل الذي يستحق في حياتنا القومية .

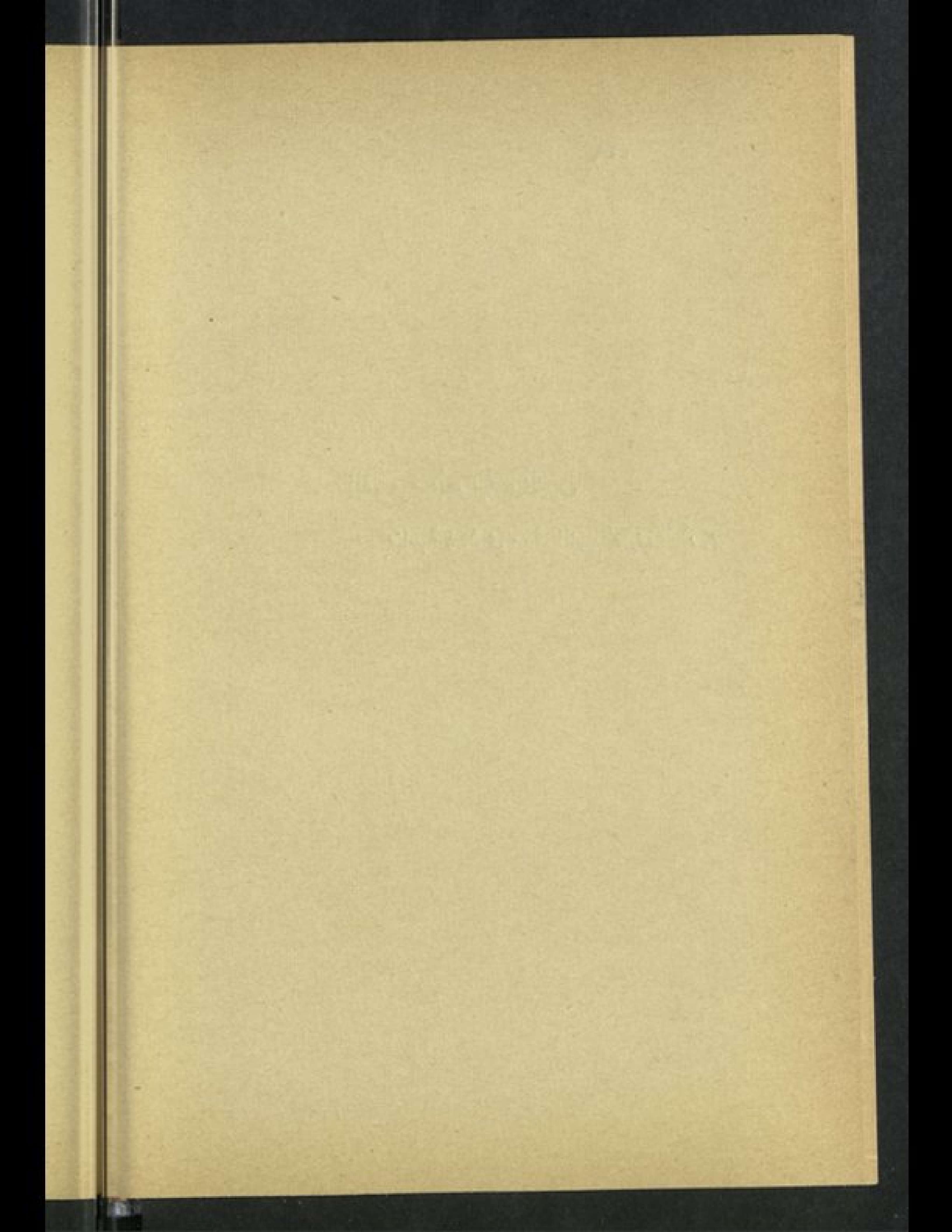
ان العرب لم يعرفوا في حياتهم دوراً كانوا فيه احوج الى الجهاد منهم في هذه الايام . فان الاعمال التي تدعو اليها النهضة القومية أعمال متشعبة النواحي واسعة النطاق تحتم علينا أن نبذل كل نسمة من روحنا وكل خفقة من قلبنا للقيام بها . وانه لمن اعظم الاجرام تجاه امتنا في هذا الدور العصيب أن تبقى قوانا كامنة في الصدور أو ان تهدر على غير النافع من الاعمال . وها ان مشروع انعاش القرى

يضرب على صدورنا الفتية فيفجر منها القوى ليمد بها حياة الامة العربية الجديدة . فاذا جاهدنا تحت لوائه - او لواء غيره من المشاريع الاجتماعية التي تعمل للخدمة العامة الخالصة - قمنا ببعض ما يفرضه علينا الواجب القومي ، ولقينا ما يبعثه هذا الجهاد في النفس من الرضى والطمأنينة والسلام .



# القومية العربية والدين

## بمناسبة ذكرى مولد النبي العربي الكريم



لست اقصد من كلمتي هذه ان استقصي البحث في ناحية من سيرة النبي العربي الكريم ، او ان اعرض عرضاً مفصلا جانباً من التعاليم السامية التي انزلت عليه . وانما هي لفظة من الفاظ الحياة تبعثها من نفسي ذكريات الماضي ، واحداث الحاضر ، وآمال المستقبل . هي فكرة وعاطفة توحيهما الي ذكرى المولد المجيدة وما تحمله من رسالة روحية لابناء الامة العربية في هذا الظرف الدقيق من حياتهم .

لقد كثر في الآونة الاخيرة اللغط والكلام في العلاقة بين القومية والدين . ولا عجب في ذلك . فالدين هو من اهم القوى التي ورثناها عن الماضي ، والتي تضافرت عوامل مختلفة على تمكينها في حياتنا ، حتى طبعت اكثر مظاهر هذه الحياة بطابعها الخاص . وقد دام تأثيرها هذا قروناً مديدة ، حتى قامت في الايام الحديثة – وعقب احتكاكنا بالغرب – عوامل جديدة تعمل على اضعافه ، او على حصره في ناحية خاصة من حياتنا الفردية والاجتماعية . وفي مقدمة هذه العوامل الجديدة الروح القومية التي انبعثت في قلوب العرب في السنين الاخيرة،

فنهضت بهم الى طلب نوع من الحياة جديد يضمن لهم الحرية والسعادة والعمران . هذه الروح القومية تزداد كل يوم تأثيراً ، وتكتسب قوة واتساعا . فلا غرو في ان يحدث بينها وبين الدين تجاذب وتباعد ، وتواصل وتقاطع ، فيبادل احدهما الآخر التأثير احياناً ، ويصارعه احياناً اخرى صراعاً يهز الحياة العربية من جذورها . ولا غرو كذلك في ان نقف اليوم من هاتين القوتين الجبارتين مواقف متباينة ، لاضطراب معناهما في نفوسنا اولا ، ولما بينهما من احتكاك وتصادم ثانياً .

فمنا من يربط قوميته بدين خاص من الاديان السماوية فيطغى في نفسه الشعور الطائفي على الفكرة القومية ، ومنا من يجعل القومية والدين متناقضين اصلا فيدعو الى محاربة الدين واهله لبناء صرح القومية على انقاضهما ، وبين هذا وذاك الوان من التفكير وضروب من الاهواء لا تدخل تحت عد او حصر . كل ذلك راجع الى قلة تمييزنا بين الروح الدينية والعصبية الطائفية . فالقومية الحقيقة لايمكنها بحال من الاحوال ان تناقض الدين الصحيح ، اذ ليست ، في جوهرها ، سوى حركة روحية ترمي الى بعث قوى الامة الداخلية ،

وتحقيق قابلياتها العقلية والنفسية ، لكي تقدم الامة قسطها من تمدن العالم وحضارته . فلا بد للقومية اذن - وهي حركة روحية - من ان تلاقي الدين وان تستمد منه القوة والحياة ، والرفعة والسمو . كذلك هي القومية العربية في وجهها الصحيح : لا تعارض ديناً من الاديان ولا تنافيه ، بل تقبل على الاديان جميعاً لترتشف من منابعها الفياضة كؤوس الصفاء والخلوص ، والقوة والخلود . واذا عارضت القومية شيئاً فليس هو الروحية الدينية ، وانما هو العصبية الهدامة التي تجعل الرابطة الطائفية اقوى من الرابطة القومية ، وتأبى ان تذيب نفسها في بوتقة الوطن الجامعة ، بل كثيراً ما تستغل الشعور الديني البريء في سبيل اهوائها الخاصة واطماعها الحزبية . تلك هي علة البلاد المستعصية ، واصحابها هم اعداء القومية العربية وهادمو وحدتها . اما الدين الصحيح ، الذي يرمي الى تفتيح قوى الروح ، فهو ينبع والقومية من معين واحد ، ويتجهان آخر الامر الى غاية واحدة . ولذلك يترتب على القوميين العرب ان يعودوا الي مصادر دينهم ، فيستمدوا منها السمو النفسي والمتانة الروحية ، وان يستلهموا - في ما يستلهمون من معالم الدين - سير انبيائهم جميعاً ، ويغذوا نفوسهم بما يفيض عنها

من قوة وصفاء .

كذلك يجدر بهم ان يربطوا ما يستمدون من هذه المعاني الروحية بالفكرة القومية التي يعيشون لها ويقفون نفوسهم على تحقيقها . فليس اجدى لنا اذن ، ونحن نكرم ذكرى المولد النبوي الشريف ، من ان نلتفت الى الماضي ، محاولين استخراج مغزى هذه الذكرى لحياتنا الحاضرة ، فنتساءل : ما علاقة النبي محمد بالقومية العربية ، وما رسالته اليها ؟

النبي محمد هو ، اولا ، نبي الاسلام ، عليه انزل هذا الدين الكريم ، وبواسطته انتشر في مشارق الارض ومغاربها . وقد بلغ اثر هذا الدين كل ناحية من نواحي ثقافتنا العربية ، فلسنا نستطيع اليوم ان نفهم تراثنا العربي القديم ، سواء أفي الفلسفة او العلم او الفن ، الا بعد درس عميق لنصوص الدين الاسلامي واحكامه ، وتفهم صحيح لروحه ونظامه . وهذا التراث العربي قسم من ثقافتنا الحاضرة ، بل هو اساسها الذي تقوم عليه . وباطل ما ينادي به البعض من ان نرمي بهذا التراث القديم جانباً ونقبل على الثقافة الغربية الجديدة ، فالتراث العربي جزء منا - شئنا ام ابينا - وهو فوق ذلك ميزتنا التي بها نتفرد بين الامم ، وقد اوتي من الخصب

والقوة والجمال ما يدفعنا الى الحرص عليه ومفاخرة الناس كلهم به . ولهذا وجب على كل عربي ، من اية طائفة او نحلة ، يهتم بثقافته الماضية وببعثها الجديد — وهذا الاهتمام هو في طليعة الواجبات التي تفرضها عليه قوميته — ان يقدم على درس الاسلام وتفهم حقيقته ، ويقدس ذكرى النبي العظيم الذي أنزل الاسلام عليه .

والنبي محمد هو ، من ناحية ثانية ، موحد العرب وجامع شملهم . بعث اليهم وهم اشد ما يكونون تفرقة وخلافاً : يتحاسدون ، ويتناحرون ، ويحارب بعضهم بعضاً ، لا رابطة قوية تجمعهم ، ولا شعار يوحدهم ويوفق بين قلوبهم . فنفخ فيهم روحه المحيية ، فاذا هذه القبائل المتنافرة قد تآلفت ، واذا هذه الجموع المتباعدة قد تقاربت ، واذا الجميع كتلة واحدة قد صهرت في بوتقة الايمان ، ففاضت على العالم تبعث فيه القوة والنشاط ، وتنشر عليه الحضارة والعمران . ولقد يقول البعض ان الرابطة الدينية كانت في ذلك الوقت طاغية على الرابطة القومية ، وان الاسلام كان اقوى من العربية . والجواب ان شيئاً غير هذا لم يكن ممكناً في القرون الوسطى : سيان في ذلك الشرق الاسلامي والغرب المسيحي .

ونحن نعلم ان القومية بمعناها الصحيح انما هي وليدة العصر الحديث وما تمخض به من قوى سياسية واقتصادية واجتماعية . ولكن بالرغم من هذا ، نجد شعوراً عربياً قوياً حتى في العهد الاول حين كانت العاطفة الدينية الاسلامية لا تزال في اشد غليانها : فلقد عامل المسلمون نصارى تغلب وسواهم من العرب بغير ما عاملوا به النصارى من غير العرب ، واشتركت بعض القبائل النصرانية في الفتوح الاولى وحاربت والمسلمين جنبا الى جنب . ثم قوي هذا الشعور العربي بدخول الاعاجم وتفشي الشعوبية ، واشتد تكتل العرب لصد هجمات الفرس والترك وسواهم من الشعوب . نعم ! ان هذه المظاهر للرابطة القومية بين العرب ضئيلة اذا قيست بالشعور القومي الذي طغى على الامم في العصر الحديث . ولكننا اذا راعينا ظروف الحياة الفكرية في القرون الوسطى ، عندما كانت العاطفة الدينية ساطية على كل شيء ، وجدنا في هذه المظاهر بذوراً صالحة للحياة القومية العربية . وما زالت هذه البذور تنمو ـ ببطء وضعف ـ خلال العصور الى ان استفاقت هذه البلاد على نور العصر الحديث ، فاذا الرابطة القومية فوق كل رابطة اخرى ، واذا هذه الرابطة تفرض عليهم ان

يكونوا كلهم سواء على اختلاف نحلهم ومللهم . ويلتفت هؤلاء العرب اليوم الى الماضي فيجدون ان اصل وحدتهم وبذرة ائتلافهم من غرس الزعيم العربي محمد بن عبدالله .

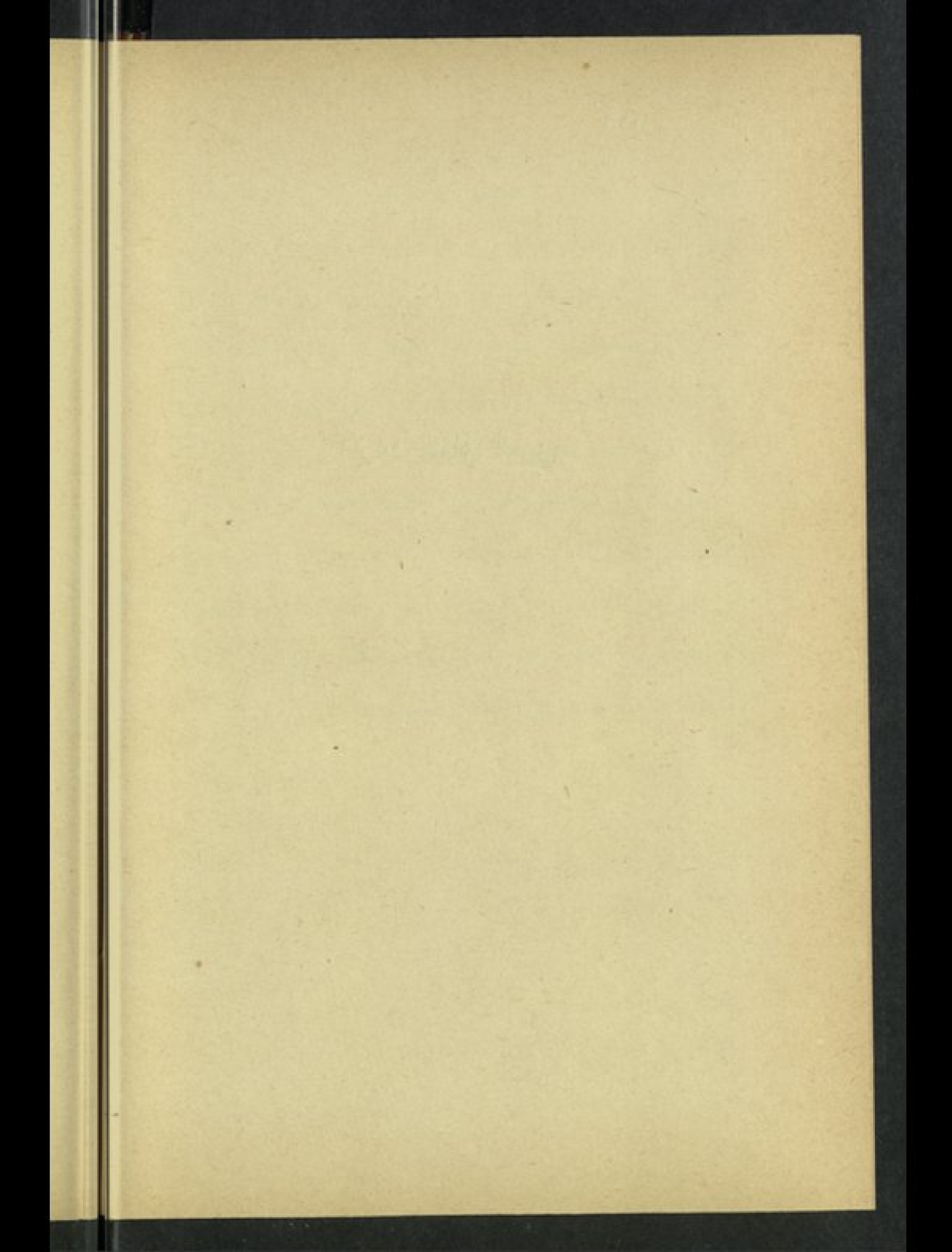
والنبي محمد هو ، من ناحية ثالثة ، مثال لرجل العقيدة . خرج في مكة وظل زمناً طويلا لا كرامة له فيها يتحمل ضروب الذل والاذى في سبيل معتقده ، وتسخر جميع القوى لارجاعه عن مبدأه ، ولكنه ظل صامداً في موقفه ، قوياً في ايمانه ، هازئاً من الوعد والوعيد ، ثابتاً على قوله لعمه ابي طالب : « والله ! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته » ، الى ان نصره الله على اعدائه واظهره على الناس جميعاً . هذا الايمان المتوقد القوي هو اساس شخصية النبي العظيم ، وهو الذي نفخ في صدور الصحابة فحولهم من اشخاص بسطاء ضيقي الافق محدودي القوى الى قادة وزعماء دكوا عروش الامم المتجبرة ووضعوا اسس تمدن جديد .

ونحن اليوم ، وقد عصفت بنا الاهواء الشخصية والمنازعات الحزبية ، وقد رفعنا المادة والجاه الى السماك الاعلى ووطئنا قوى الروح باقدامنا ، لاحوج ما نكون في جهادنا

القومي الى زعماء يقتبسون من شخصية النبي العربي قوة العقيدة وعزم الايمان فيخرجون للنضال في سبيل مبادئهم القومية بجرأة واقدام ، صابرين على الاذى ساخرين من العقبات ، وينفخون في صدور من يحيطون بهم من ابناء الامة العربية روح التضحية والاخلاص ، ويدفعون بهم على الطريق السوي الى الحياة الجديدة .

هذه هي الرسالة الروحية التي تحملها ذكرى مولد النبي العربي الى حياتنا القومية الحاضرة . ومن اجلها وجب على القوميين العرب ، على تباين نزعاتهم واختلاف مللهم ونحلهم ، ان يكرموا ذكرى محمد بن عبدالله : نبي الاسلام ، وموحد العرب ، ورجل المبدأ والعقيدة .

# التراث الثقافي العربي



## ١ — حفظه

تحاول الامة العربية اليوم ان تبني لها كياناً مستقلا ، وتشق لنفسها طريقاً سوية بين الامم . ومن الواضح الذي لا يحتاج الى جدل او برهان انه لا غنى لها في سبيل ذلك من ان تلتفت الى نفسها ، وتعنى بروحها ، وتحيي كيانها الداخلي : لان كل استقلال خارجي لا يقوم على الاسس الروحية الثابتة لا يكتب له البقاء ، وكل وحدة سياسية او اجتماعية تكون عرضاً زائلا اذا لم تدعمها وحدة في العقول والقلوب والنفوس .

ومن الواضح ايضاً ان العامل الاول في خلق هذه الروح الداخلية هو الثقافة الموحدة الرشيدة ، وان هذه الثقافة لا تكون صحيحة كاملة ولا تقوم بمهمتها الا اذا ابرزت مواهب الامة العربية الخاصة ومزاياها التي تفرقها عن غيرها من الامم . ولا يتم لها هذا الا اذا كانت تستمد من وحي الماضي وتنظر الى نفسها كجزء متمم لتطور الامة العقلي . لان الحياة مجرى واحد لا ينقطع ، وسلسلة متصلة الحلقات ، فكل فصل

بين اجزائها ، وكل بتر لصلاتها ، يأتي منافياً لجوهرها ، مخالفاً لطبيعة العمران والتاريخ . من اجل هذا كله ، وجب على الامة العربية في هذا الظرف الدقيق من حياتها ان تلتفت الى ثقافتها القديمة فتحييها والى كنوزها الدفينة فتكشف عنها وتستوحيها ، وان تبعث روحها الراقدة في الماضي لتعيد اليها رونقها وجلالها وتنشئ حولها كيان الغد وحياة المستقبل .

والحق اننا اذا القينا نظرة على الثقافة العربية القديمة وجدناها تفيض علماً وادباً وفلسفة وفناً ، والفينا ثروة عقلية روحية لا يستغني عنها من كان مثلنا في الفقر النفسي والعوز الفكري ، ولكن اجيال الجهل الماضية قد حفرت بيننا وبين هذه الثروة هوة سحيقة ومزقت الصلات التي تربطنا بها حتى غدونا اليوم بعيدين عنها محرومين من بركاتها . وليست هذه اول دعوة تصدر لحفظ الثقافة العربية واحيائها ، بل قد سبقتها دعوات وصرخات خرجت من جوانب العالم العربي وتجاوبت اصداؤها في سمائه ، فكان لها بعض الاثر فيما نشر من مؤلفات وما وضع من ابحاث في السنوات الاخيرة . ولكن الحاجة لا تزال ماسة ، والمسألة ما فتئت على ما كانت

عليه من الخطورة ، لذلك وجب ان يقوم بين آن وآخر من يدعو الى معالجتها وينبه الى جلال خطبها .

وموضع الخطر في الامر ان هذا التراث الثقافي الذي خلفه لنا السلف لا يزال قسم كبير منه منتشراً في المكاتب الخاصة أو بين ايدي من لا يقدرونه قدره أو يدركون قيمته . فمع ان المئات والالوف من المؤلفات القديمة قد وصلت الى المكاتب والمتاحف العامة حيث ستبقى محفوظة ومحاطة بضروب السهر والعناية ، فان الباحث في أية ناحية من نواحي تاريخنا العربي ليطلع عليه كل يوم ما يذكره بان عدداً وفيراً من المصادر النفيسة لا تزال ضائعة لم يتوفق الباحثون بعد الى اكتشافها : فمنها ما لا نعرفها الا باسمائها ، ومنها ما لا نعرف منها حتى الاسماء . وكل من يطلع على المجموعات التي تتضمن أسماء المؤلفين والمؤلفات في دور من ادوار التاريخ العربي : كالفهرست لابن النديم ، أو تاريخ الحكماء للقفطي ، أو كشف الظنون لحاجي خليفة — او من يراجع كتابا كمروج الذهب للمسعودي يذكر فيه واضعه المصادر التاريخية التي اعتمدها او وقف عليها — يتيقن من ان ما بين ايدينا الآن من المؤلفات العربية ليس سوى جزء يسير مما

وضعه الآباء والجدود ، وان الكثرة الباقية قد ضاع منها البعض ولا يزال البعض الآخر مبعثراً في زوايا العالم العربي يأكله العث ويتسرب اليه الفساد . كل هذا في وقت نرى الامم المتمدنة أحرص ما تكون على تاريخها الماضي وثقافتها الغابرة . فان نظرة واحدة الى ما تبذله هذه الامم من الجهود المادية والادبية لحفظ تراثها بما تبني من متاحف ومكاتب وما تنشيء من جمعيات ومؤسسات علمية لكافية لتبعث في من يتحسس بالحس الثقافي الخالص والقومي الصحيح اعظم الهمة والنشاط للعمل على ابقاء التراث العربي القديم وصيانته مما يحوط به من انواع العبث والفساد وما يتهدده من التشتت والضياع . بل ان الناظر الى الامم الغربية ليجدها أحرص منا على تراثنا واسبق الى السعي اليه والمنافسة فيه . فكم من مصدر من مصادر ادبنا او تاريخنا او علمنا لا وصول لنا اليوم اليه الا عن طريق مكتبة من مكاتب باريز او لندن او برلين او فيينا ! ويا له من تنافس شديد وتسابق مجهد ، ذلك الذي يحرك امناء هذه المكاتب او غيرهم من علماء الغرب للحصول على هذه الكنوز العلمية ، حتى ان كثيراً بينهم من يأتي من بلاده النائية الى الشرق سعياً وراءها ، ويبذل الاموال

الطائلة والهمم الجبارة في سبيلها !

ومن اتيح له ان يشهد أحد هؤلاء العلماء يقلب صفحات مخطوط من المخطوطات الثمينة ويتأمل سطوره ورسومه قد شعر ولا شك بما ينبعث من صدر هذا العالم من حب للتراث العقلي العربي وشغف به، ومن احترام يبلغ في احيان كثيرة حد التقديس . ولا يتسع المجال امامي لتعديد الامثال ، والافاضة بالادلة على ما أقول ، وانما اكتفي بمثل واحد آخذه من مقدمة المرحوم أحمد زكي باشا لكتاب الاصنام لابي المنذر هشام بن محمد الكلبي الذي نشره عام ١٩٢٤ . فقد وصف احمد زكي باشا في هذه المقدمة تشوق العلامة الالماني الاستاذ نولدكه ( Noeldeke ) للوقوف على كتاب الاصنام ورغبته فيه بالعبارة التالية : « فهذا الرجل ( الذي ارجو الله ان يمد في حياته ) ما زال شغوفاً بتطلب نفس كتاب الاصنام ، وما زال يحلم به في اليقظة والمنام ، ويجاهر امام اصدقائه وتلاميذه واولاده بانه لا يريد ان يفارق الحياة حتى يرى بعيني رأسه هذا الكتاب : « كتاب الاصنام » . فلما علم باني عثرت على هذه الضالة المنشودة واصطدت تلك الدرة الثمينة، توسل الي بواسطة صديقه وصديقي السويسري الاستاذ

هيس ( Hess ) فارسلت الى ذلك العاشق الولهان صورة فتوغرافية من هذا الكتاب . »

ان هذا التقدير البالغ الذي اظهره الغربيون للتراث العربي القديم ، وهذا الحرص الشديد عليه ، والسعي الحثيث وراءه هي التي جعلت اكثره يتسرب من ايدينا اليهم ، وينتقل من موطنه العربي الى بلادهم . ومع اننا نأسف على هذه الخسارة التي مني بها الشرق العربي ، فان المنصف لا يمكنه الا ان يقدر عمل اهل الغرب حق قدره ، ويشكر لهم هذه الجهود التي بذلوا ، اذ لولاها لكان قسم وافر من هذه المؤلفات قد ضاع او تبدد في الظلمات كما يضيع ويتبدد الان كثير من امثاله في جوانب العالم العربي المجهولة . وكثيراً ما يكون العالم او الاديب العربي اقرب الى هذه المؤلفات وهي في مكتبة غربية بعيدة عنه الوف الاميال مما لو كانت في نفس بلدته ، لانه في الحالة الاولى يعرف مكانها ويستطيع تصويرها او استنساخها متى اراد . اما في الحالة الثانية فقد يكون بعيداً عنها لا سبيل له الى استخدامها لجهل اصحابها او طمعهم المادي الزائد ، او قد تعبث بها الايدي فتذهب هباء منثوراً ، دون ان يدري بها من يعرف قيمتها ويكون مستعداً لبذل كل مرتخص وغال

في سبيلها .

ولهذا ، اني اوجهها دعوة خالصة صريحة ، صادرة من اصدق الاحساسات القومية واعمقها ، الى كل من يمتلك مخطوطات قديمة ان يعرضها على احد العلماء المختصين في قطره او ان يقدمها الى احدى المكاتب او المتاحف العربية العامة حيث يكون اميناً عليها فتحفظ لابناء العربية ينهلون من موردها ، جيلا بعد جيل . فقد آن لنا ان نعتمد على انفسنا في حفظ تراثنا والا نبقى عالة على الغرب واهله في امر من اخص امورنا . وليس اهداء كتاب الى امتنا ـ مهما بلغت قيمته المادية ـ بتضحية كبيرة منا ، بل هو واجب من اقدس واجباتنا ، لان هذه الآثار ليست في الواقع ملكا شخصياً لنا ، وانما هي ملك الامة العربية وملك العلم والثقافة والمدنية .

*

ومن البديهي ان ما نقوله عن المؤلفات القديمة يصح بالمعنى نفسه عن النقود ، والنقوش ، والملابس ، والاسلحة وسواها من مظاهر تراثنا الاجتماعي والثقافي القديم . فكم تدفع المصادفات بعض هذه القطع الأثرية الى يدنا ، فلا نبذل لها ما تستحق من الاهتمام ، او لا نهتم بها الا بقدر ما تدر

علينا من ربح مادي ، غير قادرين قيمتها العلمية والثقافية او شاعرين بالمسؤولية التي تترتب علينا لحفظها ورعايتها تحت سماء هذه البلاد التي شهدت حياتها الماضية وبين ايدي أحفاد الذين اظهروها للوجود .

وما ذكرته عن اهتمام الغربيين بمؤلفاتنا القديمة يصدق هنا عن اهتمامهم بهذه المظاهر الاخرى من تراثنا العربي . وليس من الضروري ان أسرد على مسامعكم اسماء العلماء العديدين ، والبعثات والمؤسسات المختلفة التي اتت هذه البلاد لتنقب فيها وتكشف عن آثارها . لا ! وليس من الضروري كذلك ان اشير الى الاموال الطائلة التي انفقتها او الى الجهود العظيمة التي صرفتها : تلك الجهود التي كانت تبلغ احياناً حد المخاطرة بالحياة ، كما حدث لبعض اولئك الذين رادوا الجزيرة العربية سعياً وراء آثارها . انني اترك هذا كله - وحولنا الكثير مما ينبىء به - لأقص عليكم قصة حجر واحد من الاحجار التي تزخر بها هذه البلاد :

في سنة ١٨٧٩ زار الرحالة الافرنسي شارل هوبر ( Charles Huber ) واحة تيماء الواقعة في شمالي الجزيرة العربية فلمح بين احجار احدى آبارها المتهدمة حجراً يحمل

نقشاً قد امحت اكثر سطوره ككثير من الاحجار التي يمر
بها واحدنا فلا تثير في نفسه ادنى اهتمام . ولم يتمكن الرحالة
من اخذ هذا الحجر ، فغادر الواحة وفي قلبه غصة وألم .
لكنه عاد سنة ١٨٨٣ مستصحباً معه عالماً المانياً طويل الباع
في اللغات السامية يدعى يوليوس يوتنغ ( Julius Euting )
فنقل كل منهما صورة عن الكتابة المرسومة على الحجر ، ثم
تمكنا من شرائه وارساله الى حائل عاصمة ابن الرشيد . وساروا
الى العُلى وافترقا فيها . اما الاول ( هوبر ) فذهب الى
جدة ، ثم عاد الى حائل ، فقتل في الطريق . واما الثاني
( يوتنغ ) فهاجمه البدو ، لكنه تغلب عليهم ، وقتل منهم
اثنين ، ووصل الى القدس سالماً . وكان قد ارسل صورة
الكتابة التي نقلها الى العالم نولدكه ( NoeldeKe ) ، فاسرع
هذا الى نشرها . غير ان رينان ( Renan ) الفرنسي تسلم
بدوره الصورة التي نقلها هوبر فنشرها ايضاً ، وعرّض بيوتنغ
ونولدكه الالمانيين متهما اياهما بانهما هضما حقوق هوبر . وفي
تلك الفترة كان امير حائل قد بعث الى جدة رسولا يسأل
عمن يتسلم حوائج هوبر ومن بينها الحجر الاثري ، وكان
العالم الهولندي سنوك هرغرونيه ( Snouck Hurgronie ) قد

وصل الى الحجاز فاخذ يتصل بالرسول ، فقام القنصل الفرنسي في جدة يتهمه بالعمل لايصال الحجر الى برلين وسعى لدى الحكومة العثمانية لاخراجه من الحجاز . وبعد لأي تسلم القنصل الفرنسي الحجر المذكور ، وارسله الى باريز . وهكذا احتل حجر تيماء — وهو من اهم النقوش السامية من حيث اللغة والمادة التاريخية — مكانه في اللوفر ، ولا يزال بعض العلماء الالمان يتحسرون عليه ويعتقدون ان متحف برلين احق به واحرى .

من اجل هذا الحجر الذي قد يعثر به احدنا فلا يلتفت اليه ، رحل عالمان من موطنيهما البعيدين الى الجزيرة العربية فقتل احدهما وكاد الثاني ان يلقى حتفه ، وتنازع صحبهما من العلماء ، وتدخل قناصل دولهم : كل يدعي الفضل في اكتشافه والحق في حيازته في متحف امته . وفي هذا الدليل الواضح على حرص الغربيين على تراثنا القديم وتنافسهم الشديد في سبيله .

ولست اشيد بما فعل الغربيون انتقاصاً للجهود التي بذلتها ولا تزال تبذلها الحكومات والهيئات العربية في سبيل حفظ آثار هذه البلاد ، بل استنهاضاً للهمم ، وشحذاً للعزائم ،

اذ لا تزال دون الغاية من هـذه الجهود التي يجب ان تبذل مراحل وخطوات واسعة لا يتيسر لنا قطعها الا عندما نشعر كلنا - افراداً وجماعات - بالمسؤوليـة القومية الكبرى التي القتها على عواتقنا الاجيال السالفة فنهب لحفظ تراثنا الثقـافي العربي صيـانة لماضينـا ، ورعيـاً لحـاضرنا ، وحرصاً على مستقبلنا .

## ٢ – احياؤه

تحدثت في القسم الاول من هذا البحث عن تراثنا الثقافي العربي ، وعن الواجب الذي يحدونا الى حفظه سليما من الفساد والضياع ، حرصاً على الروابط الروحية المتينة التي تصلنا به ، وعلى الثروة العقلية والفنية التي نستمدها منه لبناء شخصيتنا الجديدة . غير ان السعي لحفظ هذا التراث – على ضرورته واهميته – غير كاف بنفسه ، وانما هو خطوة تمهيدية ووسيلة الى غاية ، ولا يتم الواجب الملقى علينا الا بالعمل على احياء هذا التراث احياء يصبح فيه قريباً منا ونحن قريبين منه ، فنرد مناهله العذبة المحببة ونعب منها على الدوام .

ويقوم هذا الاحياء في ان يعمد ادباؤنا الملهمون وعلماؤنا المدققون الى الآثار العقلية النفيسة التي يمتاز بها التراث العربي القديم ، فينقلوها الى ابناء العربية بلغة هذا العصر واسلوبه وطريقة تفكيره ، مشيرين الى مواطن الحق والجمال فيها ، وناشرين الرسالة العلمية والادبية المتغلغلة في طياتها . فكلنا يعلم بغزارة الانتاج العربي القديم وبذلك السيل من الكتب

والرسائل الذي فاض من اقلام العرب في شتى نواحي الثقافة .
وكلنا يشعر ، بالوقت نفسه ، بنمو العلم الحديث وتفرع ابحاثه وطغيان وسائل النشر والتأليف ، مما لا يدع لابن هذا العصر مجالا واسعاً للتوفر على جميع مناحي الثقافة العربية وتتبع مجلداتها الضخمة الوفيرة لانتقاء ما تحويه من العناصر الخالدة .
وهذا هو من اهم العوامل التي تبعد اكثر شباننا وشاباتنا عن هذه المؤلفات القديمة وتقيم الحواجز بينهم وبينها . فلو ان الادباء اقدموا على تلخيص هذه المؤلفات لهم باللغة التي يفهمون لقاموا بمهمة جليلة وسدوا ثغرة واسعة في ثقافتنا الحاضرة .
واذا اردتم مثالا على ما اعني ، فدونكم كتاب « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين . فان هذا الاديب الكبير عمد الى كتب السيرة النبوية واستمد منها جمالها ورونقها ، وصاغ بعض حوادثها الرائعة في مقاطع ادبية لا ينتهي منها القارئ الا وفي نفسه شوق للاستزادة منها ولورود المعين الاصلي الذي عنه فاضت . ولقد عبر الدكتور طه حسين في مقدمة كتابه عن هذه الحاجة الثقافية عندما قال : « فاذا استطاع هذا الكتاب ان يحبب الى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة ، وكتب الادب العربي القديم عامة ، والتماس المتاع الفني في

صحفها الحصبة ، فانا سعيد حقاً ، موفق حقاً الى احب الاشياء اليّ وآثرها عندي . واذا أستطاع هـذا الكتاب ان يلقي في نفوس الشباب حب الحياة العربية الاولى ، ويلفتهم الى ان في سذاجتها ويسرها جمالا ، ليس اقل روعة ولا نفاذاً الى القلوب من هذا الجمال الذي يجدونه في الحياة الحـديثة المعقدة ، فانا سعيد موفق الى بعض ما اريد . »

وليس من شك في ان كثيرين من شبابنا قد عرفوا من الحيـاة العربية القديمة عن طريق هـذا الكتاب وامثاله ما لم يكن لهم سبيل الى معرفته بدونها . وان غير واحد منهم قد تفتحت له من خلالهـا آفاق واسعة في الادب العربي القـديم فعاد الى مصادره واصوله يجـد فيهـا الفائدة الادبية والمتـاع العقلي .

*

على ان هـذا النوع من الاحياء ــ القـائم على تلخيص المصادر القديمة وصوغها في قوالب التفكير والتعبير الحديثين ــ ليس كافياً وحده ، وانما يجب ان يصاحبه عمل احيائي آخر : هو نشر هذه المصادر بنصوصها الاصلية وشكلها التـام . فاذا كانت مطاليب العصر الحاضر لا تسمح لاحدنا بان يقف على

مصادر الثقافة العربية في جميع نواحيها ، فليس يضيره ان يختار لنفسه ناحية من هذه النواحي ويعمد الى مطالعة اصولها ودرسها درساً دقيقاً . وكلنا يعلم ان اصحاب الثقافة الصحيحة من رجال الغرب لا يكتفون بما يقرأون عن رجال الادب والعلم وعن مآثرهم ، وانما يحرصون على قراءة ما كتبه هؤلاء بنصوصه الاصلية . وما ذاك الا للحقيقة الواقعة وهي ان المرء لا يستطيع تقدير علَم من اعلام الادب تقديراً حقيقياً الا عندما يتصل به اتصالا مباشراً دون اية وساطة تقف حاجزاً - مهما كان شفافا - بينهما ، وان واحدنا لا يتوفق الى تفهم عصر من العصور الماضية الا اذا عاش في جوه الخاص المنبعث من لغته واساليب تفكيره التي يمتاز بها عن سواه من العصور .

غير اننا اذا القينا نظرة على هذه المصادر والمؤلفات العربية القديمة الفيناها في حالة لا تدعو بوجه من الوجوه الى الاقبال على مطالعتها والتوفر على درسها . فمنها ما نشر في بلاد الشرق العربي ، ومنها ما خرج من مطابع الغرب . اما الاولى فاكثرها سقيم الطبع ، قبيح الشكل ، رديء الورق والغلاف ، عارٍ من جميع الوسائل الحديثة التي تجهز بها

المنشورات العلمية كالفهارس وقوائم المفردات وسواها . هذا علاوة على ما دخل نصها من التحريف والتبديل والتحويل مما لا يدعنا نثق به او نطمئن الى صحته . وموجز القول ان اكثر هذه المصادر المطبوعة في البلاد العربية غير مستوفية للشروط العلمية والفنية التي يقوم عليها النشر الحديث . فلا عجب اذا صدفت ناشئتنا عنها ، ونعتتها بازدراء بـ « الكتب الصفراء » وتهالكت على المؤلفات الغربية التي تقدم لها بقالب جميل وشكل مُغرٍ فتان . والحق ان الثقافة العربية القديمة لتلقى اشد انواع المنافسة من الثقافة الغربية الحديثة ، فاذا نحن لم نحببها الى ناشئتنا ، ولم نستخدم ما تستخدمه الثقافة الغربية من سبل الدعاية ووسائل الاغراء ، لم يكن لنا امل في احياء الآثار العربية وفي تلقيح ابنائنا ببذورها المفعمة بالخصب والحياة .

واما المصادر العربية المطبوعة في الغرب فمعظمها مستوف للشروط العلمية والفنية التي ذكرنا . وكل من يطالع هذه المطبوعات ويقابلها بما نشر في الشرق العربي يتحقق حالا من هذه الصفات التي تمتاز بها ، ويشعر بالجهد الذي بذله ناشروها للوصول الى نصها الصحيح ، ثم لارشاد الباحث الى جزئياتها

بما جهزوها به من فهارس وسواها ، واخيراً لابرازها بشكل ترتاح اليه العين ويستسيغه العقل والذوق . ولكن ناشئتنا قلما تصل الى هذه المنشورات إما لغلاء ثمنها ، واما لقلة انتشارها في اسواقنا وعدم انتظام تجارة الكتب في بلادنا .
كما انه من العار علينا ان نبقى في هذا الامر ايضاً — كما هي حالنا في حفظ تراثنا — عالة على الغرب نتكل عليه في احياء هذا التراث ، وفي نشره وتعميمه بين الناس .

من اجل هذا ، وجب ان يهب علماؤنا ومؤسساتنا الثقافية الى الاضطلاع بهذه المهمة الجليلة ، فيعملوا على نشر مصادر ثقافتنا العربية بما يتفق والشرطين الاساسيين اللذين يفرضهما العلم الحديث : وهما دقة التحقيق ، وجمال العرض .

*

ومن البديهي الذي لم يعد يحتاج الى دليل ان هذا الاحياء — سواء اكان في نشر المصادر القديمة ام في تلخيصها والتأليف عنها — لا يتم على الوجه الاكمل الا اذا بني على اساس التنظيم الصحيح .

ولا اعدو الحقيقة اذا قلت ان الغرب لم يبسط امامنا — نحن العرب — رسالةً اوضح واهم من « التنظيم » ، وان

اختبارات السنوات الاخيرة يجب ان تكون قد علمتنا ان التنظيم شرط اساسي لنجاح اي من اعمالنا القومية . فلكم يعزم احد ادبائنا على ان يحيي مصدراً من المصادر القديمة ، ويمضي في عمله خطوات عديدة ، ثم لا يلبث ان يسمع ان اديباً آخر قد سبقه اليه ونشره من قبله . وكم يحدث ان بعض الناشرين يعمدون الى كتب قليلة الاهمية يولونها من العناية ما لا تستحق ، في حين ان كثيراً من امهات المصادر لا تزال دفينة في خزائن الكتب والمخطوطات . ثم ان نواحي الثقافة المختلفة لا تنال في مثل هذه الحال من الفوضى نصيباً متساويا من اهتمام العلماء . فالذي يلقي نظرة سريعة على ما احيي من المصادر القديمة يلاحظ ولا شك ان كتب الادب والتاريخ فيها تطغى على ما سواها ، وانه بينما اصبحنا نملك عدداً لا يستهان به من دواوين الشعراء وتواريخ المؤرخين نكاد لا نجد بين ايدينا الا النزر اليسير من الاصول الفلسفية ، واقل منه من المصادر العلمية والفنية ، منشوراً نشراً مرضياً . جميع هذه العلل والشوائب لا تزول الا بالتنظيم الصحيح الذي يجمع جهود الافراد والمؤسسات ويصرفها الى الاهم فالمهم من الاعمال ، دون تضارب او تبذير او خسارة . ويعظم خطر

هذا الامر في اعيننا اذا ذكرنا انا في حالتنا الحاضرة - وقد سبقتنا الامم اشواطاً بعيدة - لأحوج ما نكون الى كل ذرة من قوانا والى كل نبضة من قلوبنا لكي نحفظ كياننا ونبلغ غايتنا .

*

تلك هي السبل التي يجب ان نسير عليها في حفظ تراثنا العربي القديم واحيائه . ولا يغرن احداً ما يردده البعض من ان الثقافة العربية قد ماتت واندثرت وانه لا سبيل الى احيائها ، أو انه لا غنى لنا في هذا الاحياء الذي يصرفنا عن اقتباس العلم الحديث والثقافة الغربية . فالثقافة العربية التي سادت العالم عصوراً طوالا ، والتي لم تمحها اجيال من الارهاق والاضطهاد لها من القوة والحيوية ما يضمن لها البقاء . ولن يضيرها ان تتصل بالثقافة الغربية وتأخذ عنها . فقد اتصلت في الماضي بثقافات متنوعة وحضارات متباينة واستمدت منها عناصر وافرة ، فلم تضعف بها ، بل ازدادت قوة على قوة وحياة في حياة .

أجل ! ليست جميع نواحي هذه الثقافة سواء في تأثيرها على حياتنا الحاضرة . فنظريات العلماء العرب مثلا ليست ذات

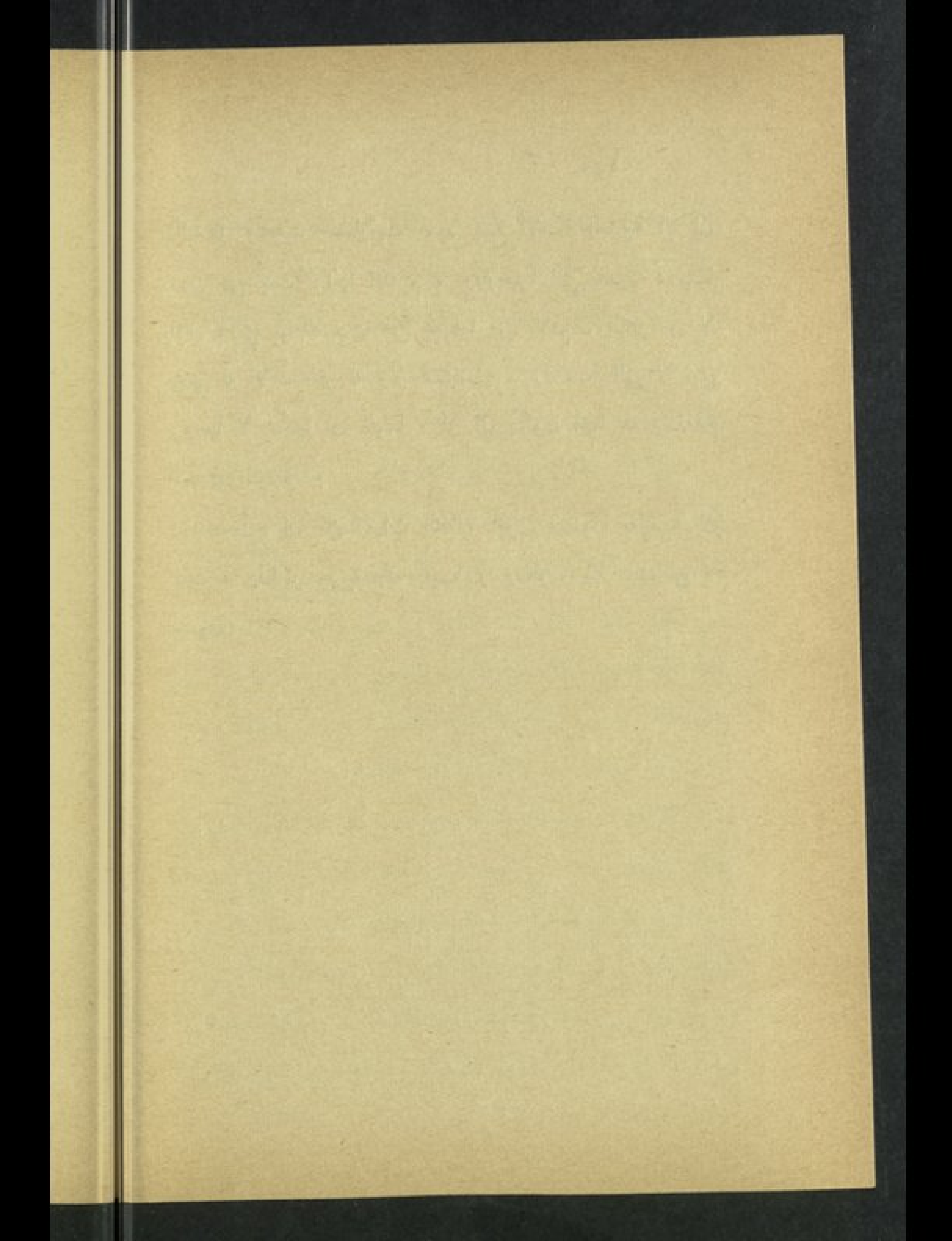
فائدة تطبيقية في عصرنا هذا ، وكثير من مبادئهم الفلسفية لا يمت بصلة الى مشاكل العقل الحديث . ولكن من منا لا يقرأ كتب الادب القديم ، او مجموعات الحكم والامثال ، او رسائل الدين والحكمة والاخلاق ، ولا يستمد منها ما ينمي عقله وعاطفته ونفسه ؟

حتى كتب العلم التي لم يبق لنظرياتها الا الفائدة التاريخية ، أليست تنشر لنا من طيات مجلداتها الضخمة التي بذل العلماء نفسهم في وضعها صفات الصبر والصدق والبحث عن الحقيقة التي كانت ولا تزال رائد العلماء في جميع العصور والاقطار . حقاً ان الذي ينكر على التراث العربي القديم رسالته الى ابناء هذا العصر والى الانسانية عامة لا يعرف حقيقة هذا التراث ولم ينهل من منابعه الفياضة المحيية .

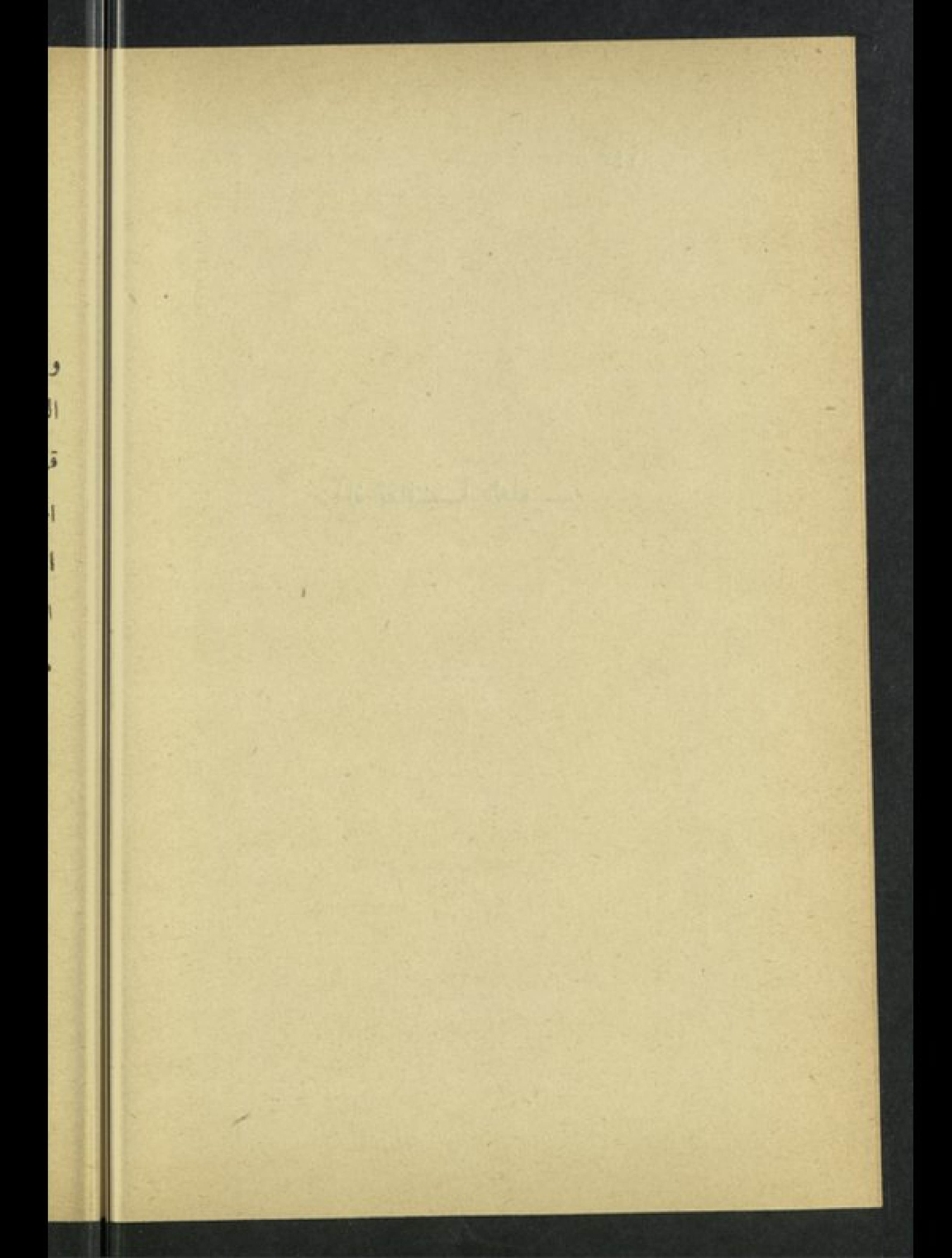
والغريب ان هؤلاء الداعين الى نبذ التراث العربي او اهماله يرددون ذلك في عصر نري الامم النازعة الى حياة جديدة تعمد الى ثقافتها القديمة فتحييها وتجعلها عنوان مجدها وقبلة آمالها . في الوقت الذي تسعى كل امة نشيطة من امم الشرق والغرب — من تركيا وايران الى فرنسا وانكلترا وايطاليا والمانيا وسواها من الامم الصغيرة والكبيرة — الى تقديس

تقاليدها وتمجيد حضارتها ، لا يسع الامة العربية الا ان تعمل على بعث تراثها القديم ، وروحها التي ولدت تمدنها التالد والتي بها تفردت عن غيرها من الامم . فكل من لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل . والامة التي لا تعي روحها لا يمكنها ان تحيا ، او ان يكون لها يد في تقدم التمدن البشري .

حقاً ، ان من التراث الثقافي العربي لكنوزاً خليقة بان تبعث ، ولمآثر حرية بان تحيا ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون .



# ضآلة ثقافتنا العلميــة



لقد اعتدنا ان نصف الطور العقلي الذي نمر به بالتجدد والانبعاث ، وندعوه بشيء من الزهو والمباهاة : « دور النهضة الحديثة » . وانه لكذلك — دور نهضة وتقدم — اذا قورن بما كنا نرزح تحته من جهل وفقر روحي في القرون الماضية الاخيرة . ولكن الناظر في امر نهضتنا هذه ليجد ان نموها لم يكتمل بعد ، وانه لا يزال فيها كثير من الضعف والنقص يتطلب معالجة سريعة فعالة كي تؤتي هذه النهضة اكلها طيباً وثمارها يانعة .

ولست اقصد الآن ان اشير الا الى ناحية واحدة من نواحي هذا النقص في نهضتنا ، وهي ناحية قد استلفتت — ولا شك — انظار علمائنا وادبائنا والقائمين على امر التربية والتهذيب فينا ، ولكننا نظل نتجاهلها ونتناسى عواقبها الوخيمة فنحتاج بين فترة واخرى الى من يذكرنا بها ويدعونا الى تدبرها ومعالجتها .

ان النقص الذي اعني هو ضآلة ثقافتنا العلمية ، هو الفقر العلمي الذي يظهر جلياً في حياتنا الفكرية الحاضرة . واعني بالعلم تلك الابحاث المنظمة في المواضيع المتعلقة بالطبيعة وبحياة

الانسان فرداً ومجموعاً ، اي ما اعتدنا ان نشير اليه بقولنا : العلوم الطبيعية ، والرياضية ، والاجتماعية الخ . . . فبينما ترانا ننصب على المواضيع الادبيـة ونبادر الى معالجتها وتحبير المقالات الطويلة فيها ، تجدنا من جهة اخرى لا نمس الابحاث العلمية الا بمقدار ضئيل ، ونهملها اهمالا يدعو الى الاسف ويبعث على القلق .

يتجلى هذا الفقر العلمي في مظاهر متعددة من حياتنا العقلية لا يتسع المجال لاستقصائها كلها ، وانما اكتفي بالاشارة الى ثلاثة من اهم هذه المظاهر واكثرها دلالة على الاتجاهات البارزة في تفكيرنا الحاضر .

يتجلى اولا في مجلاتنا وجرائدنا التي تعنى بالابحاث العقلية وتحاول ان تؤدي رسالة ثقافية . فهي تفتح صفحاتها الواسعة للمواضيع الادبية ، وتملأ اعمدتها الطويلة بمنتوجات قرائح الادباء من نثر وشعر . وتثير المسائل الادبية ، فيختلف عليها الكتاب والنقدة ، وينقسمون الى فرق واحزاب : فمنهم اتباع القديم ، ومنهم انصار الحديث ، ومنهم الرمزيون ، وغير الرمزيين ، الى غير ذلك من اسماء والقاب تتزاحم امام عينيك عند مطالعتك اية مجلة من مجلاتنا العربية .

ولا يخفى ان كثيراً من هذه "المقالات الادبية تبحث في مواضيع جزئية قليلة الاهمية وتأتي احياناً بآراء تافهة خفيفة الوزن والقيمة ، في حين ان هناك مواضيع علمية جليلة هي اليوم من اهم اسس الثقافة الحديثة لا تجد بيننا من يعالجها او يشير اليها . فكل علم من العلوم ، طبيعياً كان ام اجتماعياً ، يتمخض بنزعات جديدة ويلد كل يوم اكتشافات ونظريات خطيرة قل بيننا من له ادنى اطلاع عليها . واذا لم يكن من الحق ان نطالب مجلاتنا بان تتناول الابحاث الاختصاصية التي تدور حول جزئيات هذه العلوم ، فلا اقل من ان تعنى بالابحاث العامة في المسائل الاساسية الهامة التي يتناولها العلم الحديث : وهو اساس مدنية هذا العصر .

وتقرأ مجلاتنا وجرائدنا فتقع عينك على اسماء قادة الادب في الغرب وتتعرف الى آثارهم ومنتوجاتهم وتقف على الشيء الكثير من حياتهم العامة والخاصة ، ولكن قليلا ما تلقى فيها زعيماً من زعماء العلم الذين يسيطرون اليوم على قسم عظيم من الثقافة الحديثة ويتقدمون بالعقل الانساني خطى واسعة في استكشاف حقائق الكون او تفهم حياة الانسان .

ويطلع علينا كتاب ادبي او ديوان شعري فتتناوله اقلام كتابنا

بالبحث والانتقاد ، وينشئون عنه وعن مؤلفه المقالات الطوال ، فتفسح لها المجلات ارحب مجال ، ويصدر احد الكتب العلمية — وما اقلها عندنا — فلا يظفر منا ، ان كان له قسط من الحظ ، الا باشارة بسيطة او ذكر عارض .

وقد يقال انـه من العنت والجور ان نضع اللوم في هذا التقصير كله على عاتق مجـلاتنا وصحفنا ، فهي تصور النزعات السائدة في حياتنا الفكرية وتقـدم لقرائها ما تطلبه انفسهم من الاغذية العقلية . فاذا ما قامت مجلة ما — كالمقتطف مثلا — وعنيت بهذه الابحاث التي نطلب ، قـل نسبياً عدد قرائهـا وانصرفوا عنها الى غيرها من المجـلات . والجواب ان للمجلات وظيفـة اخرى اسمى من تصوير النزعات الفكرية والتمدني لخدمتها : عليها توجيه هـذه النزعات وقيادتهـا ورفعهـا الى اعلى درجات النمو والكمال . فـلا يمكننا اذن ان نبرىء صحافتنا — وهي الاداة الكبرى لنشر الثقـافة خارج جدران المدرسة — من نصيبها من المسؤولية في اهمال هـذه النـاحية الهامة ، الناحية العلمية ، من الثقافة الحديثة .

ويلاحظ فقرنا العلمي من جهة اخرى فيما يصدر عنا من كتب ومؤلفات . فلو قمنا باحصاء دقيق للمؤلفات التي تخرجهـا

مطابع العالم العربي لوجدنا الكتب العلمية لا تكوّن منها الا جزءاً ضئيلا . فمن دواوين شعرية ، الى مذكرات ، الى ابحاث نقدية ، الى مجموعات ومقالات صحفية ، الى تواريخ ادبيـة : تلك هي اهم انواع منتوجاتنا التأليفيـة . وبين هـذا الحشد الوافر المتزاحم لا تجد المؤلفات العلميـة الا مكاناً ضيقاً تحشر فيه بعيدة عن الانظار ، فلا يعرف بها الا الاقلون . ولعل اهم وجهات هذا النقص واشدها خطراً هي تلك التي تتعلق بالمؤلفات المدرسية . وهي ناحية يظهر اثرها في سوريا ولبنان اكثر مما نراه في البلدان العربية الاخرى . فبينما نجد بين ايدينا كتباً مدرسية جديدة في اللغة والادب والتاريخ يرجع اليها طلابنـا في هذه الدروس المختلفة ، نكاد لا نعثر الا على نزر يسير من الكتب العلمية باللغة العربية تتناول الرياضيات والطبيعة والكيمياء والحيوان وعلوم الاجتماع وتقدم هـذه العلوم الى الطلبة بلغتهم الاصليـة . ولذا يجد طلبتنـا انفسهم مضطرين الى الرجوع الى الكتب الاجنبية والى تلقن هـذه العلوم بلغة غربية ، وفي هـذا ما فيـه من الخطر على ثقافتنـا العربيـة ومستقبلها في هذه البلاد .

ويظهر فقرنا العلمي اخيراً عند محاولتنـا بعث ثقافتنـا

العربية الماضية واستخراج تراث اسلافنا لنبني على اساسه الثقافة العربية الجديدة . فنحن قد عمدنا الى اصولنا الادبية ، وتنبهنا لوجوب نشرها نشراً صحيحاً ، وعكفنا على استخراج موادها والاستناد اليها في ابحاثنا الادبية . ولكننا لم نتصرف ، الا قليلا ، شطر المؤلفات العلمية الغزيرة التي وضعها العرب في شتى العلوم لنقف منها على مآثر اسلافنا وموضعها من تاريخ العلم والثقافة . وها ان آذاننا لا تزال ترن واذهاننا لا تزال تعج بما سمعنا وقرأنا عن المتنبي بمناسبة ذكراه الالفية من الابحاث والقصائد التي تملأ المجلدات الكبار ، فهل اظهرنا جزءاً ، ولو صغيراً ، من هذا الاهتمام باقطاب العلم العربي الذين لا يقلون عن المتنبي ، ان لم يفوقوه ، خدمة للثقافة العربية واعلاء للمجد العربي في حقل العلم والمدنية ؟ هل بيننا من يعرف عن امثال ابن سينا والرازي وابن النفيس والخوارزمي والبتاني وابي الوفاء البوزجاني وجابر بن حيان وابن الهيثم والبيروني وغيرهم اكثر من اسمائهم — ان كنا نعرف هذه الاسماء ؟ وهل لنا ادنى اطلاع على حقيقة مآثرهم العلمية التي اخذ العلماء الغربيون يتنبهون لها ويعطونها حقها في تقدم العلم والثقافة ؟ ذلك هو ، فيما اعتقد ، من

اهم مظاهر النقص في ثقافتنا العلميـة ، وبالتـالي في نهضتنـا الحديثة عامة .

*

ولقد يتساءل المرء عن اسباب هذا النقص في ثقافتنا وعن مصادره التي يرجع اليها . ولا شك في انها عديدة متفرعة لا يمكن الاحاطـة بهـا الا بالدرس الوافر والبحث العميق ، ولكننا لا نكون بعيدين جـداً عن الصواب اذا اثبتنا ان اهم هذه الاسباب يعود الى تدريبنا المدرسي . فان اكثر عاداتنـا الفكرية تتكوّن في عهد الدراسة ، فنحملها معنا الى الحيـاة حيث تصحبنا في مراحلنا العقلية المختلفة .

ويخال الي ان التقصير المدرسي في هذه الناحية يرجع اولا الى ان القـائمين على تدريس العـلوم عندنا لم ينجحوا بعد في تحبيبهـا الى افراد الناشئة واثارة رغباتهم في تتبعها والوقوف على اسرارها . فكلنا يعلم ما يشعر به الطالب العادي نحو الرياضيات والطبيعة وغيرها من العلوم من الكره والبغض النـاتجين عن جهل المعلم كيفية ابرازها في حقيقتها واستمالة قلوب الطلبة اليها . فاذا نجح احد الطلبة في هذه العلوم ومال اليها ، فيكون ذلك غالباً لان غريزته الطبيعية قد تغلبت على اساليب التعليم

العقيمة فاحب هذه العلوم بالرغم من طريقة استاذه ، لا بفضلها .

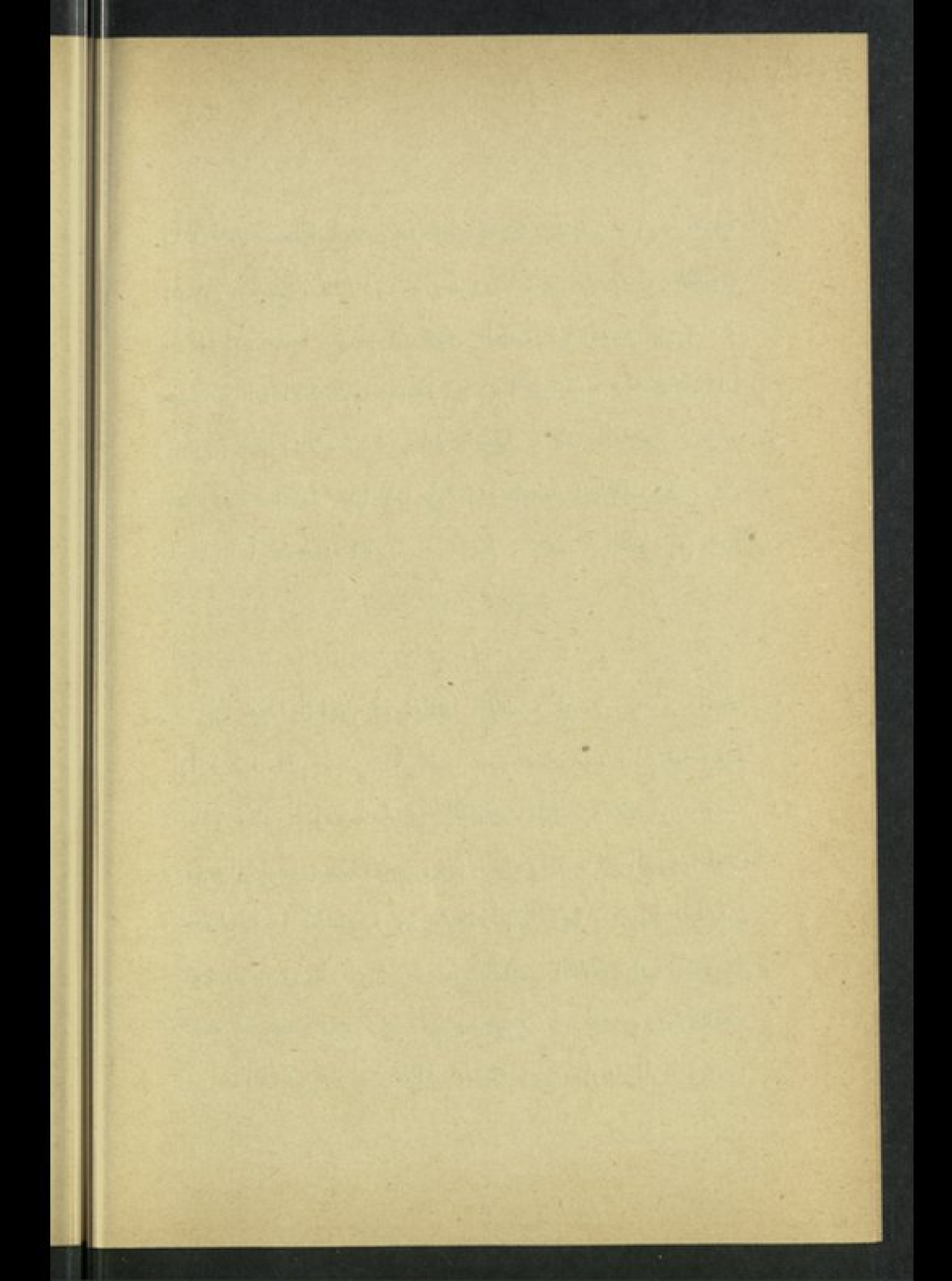
زد الى ذلك ان اساتذتنا اذا نجحوا في ترغيب الطلبة في العلوم المختلفة نراهم عاجزين عن اثارة هممهم لمتابعة هذه العلوم بعد انتهاء دراستهم ولتعميمها ونشرها بين ابناء بلادهم ، حتى انك لترى اقلية العلماء بين مفكرينا اقلية صامتة عاجزة عن البحث والنشر . فكأن افرادها خزنوا علمهم لانفسهم ، او انهم لم يدربوا على الكتابة فاذا دعوا اليها وجدوها امراً صعباً جداً ، ان لم يكن مستحيلا . ولعل ما اشرت اليه سابقاً من درسهم العلوم بلغة اجنبية هو العامل الاكبر في هذا العجز .

وبينا الحال كذلك عند طلبة العلم ومدرسيهم ، نرى اساتذة الادب على العكس من ذلك يشجعون طلبتهم على الكتابة مهتمين باسلوب القول اكثر منهم بمادته حتى غدا هؤلاء الطلبة يشعرون ان كل من استطاع ان يكتب دون ان يرتكب اغلاطاً لغوية او كل من مهر في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية يمكنه ان يحمل قلماً وان يدعى اديباً . فلا يكاد يخرج الطالب « الادبي » من مدرسته حتى يهرع الى الصحف

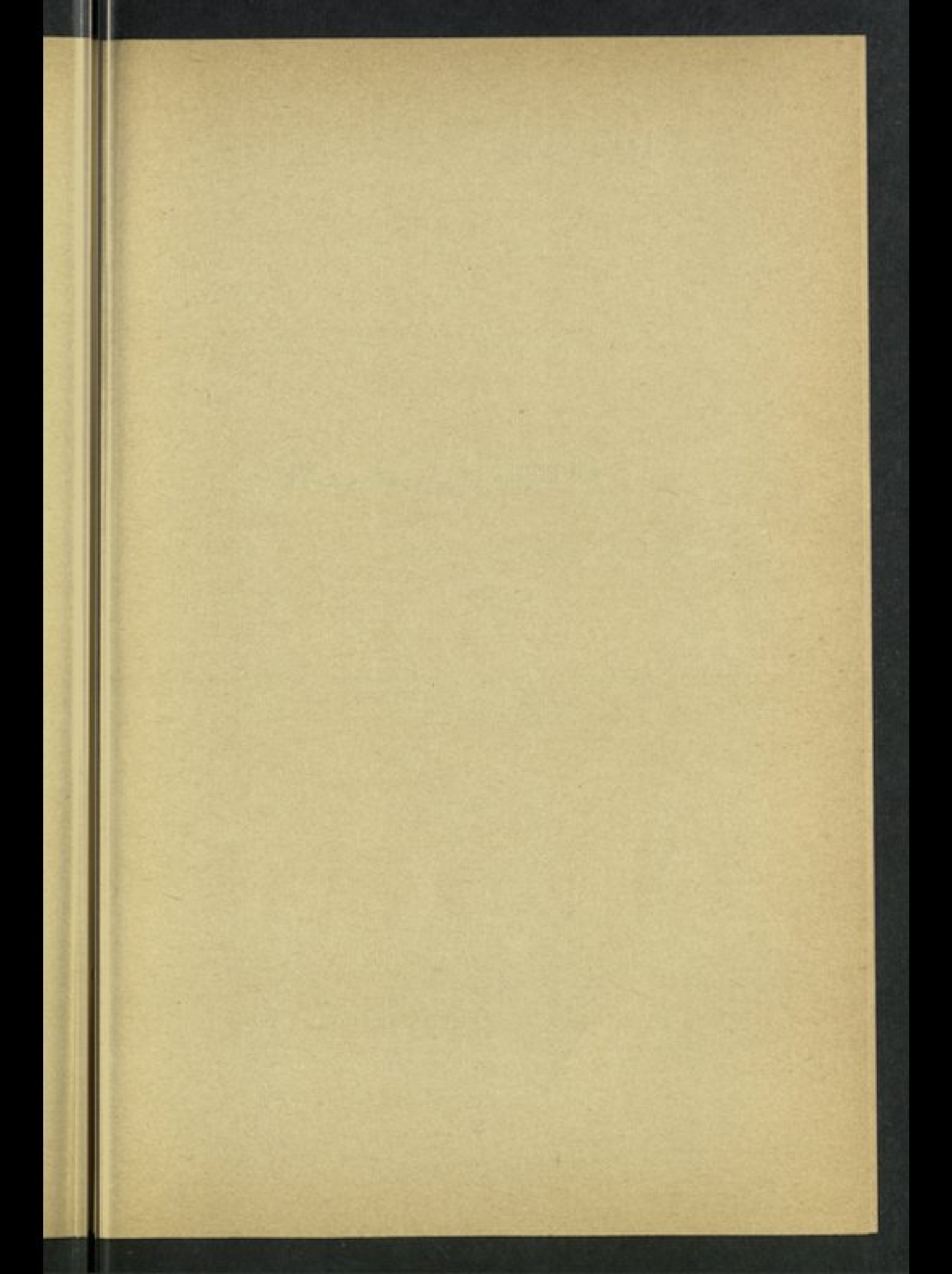
والمجلات يتحفها ببنات افكاره الفجة ، فتنشرهـا له هـذه المجلات وتزيد بذلك غروره وغرور امثاله من الذين يعتقدون ان الادب مطية سهلة وان مجال البحث فيه متسع لمن شاء . هذا مع ان الابحاث الادبية هي في الحق اشد دقة ويجب ان تكون ابعد منالا من الابحاث العلمية ، لان المقاييس في هذه معروفة محـدودة بينما انها في تلك غامضة غير ملموسة . من هنـا نشأ تضخمنا الادبي من جهة ، وفقرنا العلمي من جهة اخرى .

*

ان هـذا النقص في ثقافتنا الحاضرة ليبدو خطره واضحاً اذا ذكرنا ان العصر الحـاضر هو عصر قـد ساد فيه العلم سيادة تكاد تكون تامة في الحياتين العملية والعقلية . ولسنا نحتاج الى تفصيل هذا الامر ، فان نظرة واحدة الى المدنية الحديثة باختراعاتها واكتشافاتها ، وبمختبراتهـا ومؤسساتهـا العلمية ، لتؤيـد صدق ما نقول . فمن النقص الفاضح ان نكون في عصر العلم منصرفين عن العلم ومقصرين في حقه ، ومن التقصير المعيب ان لا نجاري الثقافة الحديثة في مضمارها الرئيسي .



# الأدب التوجيهي وحاجتنا اليه



ليس من شك في ان الكمية الادبية التي تخرج من مطابع العالم العربي عظيمة جداً . فالكتب والمجلات والجرائد التي تطلع علينا في كل ساعة من ساعات النهار وتملأ جونا صخباً وضجيجاً تكاد لا تحصى عدداً . والمادة الادبية التي تفيض منها غزيرة تطغى علينا كأنها السيل الجارف . واذا جئنا نحلل هذه المادة وجدنا اقلها نافعاً ، واكثرها ضاراً ، واننا نقرأها للتسلية و « قتل الوقت » ، اكثر منا لما ننشد فيها من غذاء عقلي او وحي روحي .

ازاء هذا السيل الجارف ، لا بد لنا من ان نفكر في قيمة هذه المادة الادبية ، وان نتساءل عما هو منها اوفى بحاجتنا في مرحلتنا العقلية الحاضرة . ولا شك في ان اجوبتنا على هذا السؤال تكون مختلفة متباينة : فبعضنا يؤثر الابحاث الادبية ، وآخرون الدراسات العلمية ، وغيرهم التحاليل النقدية . وفي كل من هذه الفرق نزعات متعددة وآراء متضاربة . وقد وجهت هذا السؤال الى نفسي مراراً فخرجت من تفكيري فيه برأي اود عرضه على القراء بايجاز اثارة للبحث في هذا الموضوع الخطير . انني اعتقد اننا ، في مرحلتنا الفكرية الحاضرة ، اشد ما نكون حاجة الى نوع من الادب يمكننا

ان ندعوه بـ « الادب التوجيهي » .

كلنـا يعلم اننا نعيش اليوم في فوضى فكرية بعيدة المدى عظيمة الخطر . نتكلم بالسنة مختلفة وننشر آراء متباينة فتتصادم وتتنازع وتثير في جونا الفكري بلبلة واضطراباً ترتج لهما كل ناحية من نواحي حياتنا . فترانا نتخبط في خضمنا العقلي الهائج ، نصيب الهدف حيناً ونخطئه احياناً ، فتتشعب قوانا ، وتتضارب اهواؤنا ، وتتشتت آراؤنا ومرامينا .

ويمكننا ان نرد هذه الفوضى الفكرية التي نتخبط فيها الى عوامل ثلاثة : اولها ان العصر الحاضر الذي تعيش فيه الانسانية عامة هو عصر اضطراب فكري وفوضى عقلية . فالحرب العظمى ، وما صحبها ونتج عنها من قوى هدامة ، لم يقتصر عملها الهدمي على المؤسسات السياسية ، والنظم الاقتصادية ، بل تعداها الى المبادىء والعقائد العقلية . فها نحن نرى النظريات العلمية والعقائد الدينية والنظم الفلسفية التي كان اهل القرن الماضي يستندون اليها بامان واطمئنان ، تنهار امام اعيننا ، وتحل محلها التيارات المتصادمة ، والنزعات المتناحرة . فالفوضى التي نعيش فيها في العالم العربي اليوم هي جزء من الفوضى العالمية التي تتخبط فيها الانسانية عامة والتي لا بد لنا من ان نتأثر بها بعد ان قرب العلم المسافات وجعل من العالم

كله بلداً واحداً .

اما العامل الثاني ، فهو خاص بنا . مرجعه اننا نعيش الآن في مرحلة انتقال من القديم الى الجديد . لقد كنا الى عهد قريب نعيش في عالمنا الخاص، ونفكر تفكير اجدادنا ابناء القرون الوسطى، فاذا بالعلم الحديث يهاجمنا بادواته النظرية والعملية فيدفعنا الى الجديد دفعاً سريعاً ، واذا بنا الآن في نزاع مستمر بين قوتين : لم نتجرد بعد من كل القديم ، ولم نعتنق بعد كل الجديد ، انما نقف بينهما منقسمين بعضنا على بعض ، مشتتين في آرائنا ونزعاتنا .

بقي العامل الثالث : وهو تعدد الثقافات والانظمة التربيوية التي انتشرت في محيطنا . فليس لتربيتنا المدرسية طابع خاص ، او اتجاه معين . تلقينا العلم من معاهد مختلفة المشارب ، متعددة الالوان ، فاصبحنا لا يوحدنا هدف ، ولا يجمعنا منهج ، ولا يعمنا لسان .

ومن خصائص مرحلة الفوضى هذه ، انها جعلت حياتنا الفكرية مائعة ، سيالة ، ليس لها اتجاه او موقف ثابت . فالقوى المتعددة التي تنصب عليها وتعمل فيها قد صهرتها صهراً ، والنزعات المتصادمة قد أذاب بعضها بعضاً فاختلطت وتمازجت . فاصبح من واجب قادة الفكر في عالمنا العربي ان يعملوا على توجيهها الى الغايات المثلى : وذلك بان يوضحوا امامها الاهداف ويخطوا في وجهها السبل

ويدفعوها فيها فتنتظم احوالها وتقوم بعملها على الوجه الاكمل .
لذلك قلت اننا اليوم اشد ما نكون حاجة الى الادب التوجيهي .

*

اعني بالادب التوجيهي ذلك النوع من الادب الذي يوضح امامنا الاهداف ، ويوجه قوانا الفكرية اليها ، ولا يزال يعمل موضحاً وموجهاً الى ان تصبح لنا عقائد تسود حياتنا وتجمع حولها كل ما في نفوسنا من ايمان واخلاص ، وما في عقولنا من فهم وذكاء .

ففي حقل السياسة مثلا نحتاج الى ابحاث اساسية في معنى القومية ، والامة ، والعلاقة بينهما ، والعناصر التي تقوم عليها كل منهما ، وكيف تكونت الامم ، وما هي السبل التي انتهجتها . كذلك علينا ان ننظر في عناصر قوميتنا وطرق بعثها وتوحيدها ، وفي اهدافنا القومية ووسائل تحقيقها . كل ذلك كيما نتوصل الى عقيدة قومية واضحة ، فننظر الى مشاكلنا القومية والسياسية نظرة صحيحة ، ونعمل على تحقيق اهدافنا في آمن السبل وانفع الطرق .

وفي ميدان الاقتصاد يجب ان نبحث في النظام الاقتصادي العالمي ، والعوامل التي تتجاذبه ، وموضعنا منه ، والنظريات الاقتصادية الحديثة ، وتصادمها ، واثر ذلك في السياسة العالمية ، ثم الاسس التي تبنى عليها نهضتنا الاقتصادية ووسائل تحقيقها .

وفي الاجتماع نحتاج الى دراسات صائبة في المؤسسات الاجتماعية ــ واهمها العائلة ــ والقوى التي تتنازعها في الشرق والغرب، وموقفنا من القديم والجديد في العادات والتقاليد ، والنظريات الاجتماعية الحديثة وامكان تطبيقها في محيطنا .

كذلك في الادب نحتاج الى ابحاث عميقة شاملة في « الانواع » الادبية ، ووظيفة كل منها ، وحظ ادبنا العربي منها ، والوجهة التي يجب ان نسيّره فيها في النهضة الحاضرة كي يصبح ادباً عالمياً يؤدي رسالته الخاصة للانسانية المفكرة .

فاذا انصرفنا الى مثل هذه الابحاث وما يشبهها في كل ناحية من نواحي حياتنا الفكرية ، خفت البلبلة باتضاح العقائد ، وقل التصادم بانتظام السبل والمناهج .

ويمتاز هذا الادب التوجيهي بمزايا ثلاث : اولا انه ادب بحث واستقراء لا يصدر عنه الكاتب الا بعد ان يكون قد فكر في ناحية من حياتنا العقلية تفكيراً عميقاً ، فحلل واستنبط ودرس العوامل المؤثرة ، والنتائج المنتظرة . فاذا كتب فانما يكتب ليؤدي رسالة لم تأته عفواً ولم تتيسر له الا بعد ان اجهد فكره وعقله ليحل مشكلة من المشاكل الاساسية التي تعترض ابناء امته . ثانياً انه ينظر نظرة شاملة ، فيحيط بالمسائل من جميع جهاتها ، ويرتفع فوق الجزئيات

الضئيلة والمواضيع التافهة ، ويرى المشاكل الكبرى والاتجاهات الرئيسية . ثالثاً انه اشد ما يكون اتصالا بحياتنا الحاضرة ، فهو لا يستوحي الازمان الغابرة او الاجيال المقبلة فحسب ، ولا يقلد ادباً قديماً او جديداً ، وانما هو ينظر الى حياتنا الحاضرة ، فيتغلغل الى صميمها ، ويصورها تصويراً دقيقاً ، ثم يرسم لها الخطط وينصب امامها الاهداف .

وهذه الصفات الثلاث : التعمق ، والشمول ، والاتصال بالحياة ، هي المزايا الرئيسية للادب الذي يطمح اصحابه الى ان يكون ذا اثر في حياة امتهم او في التفكير الانساني عامة .

ولا يحسبن احد ان هذا الادب التوجيهي يقتصر ضرورة على الابحاث العلمية الجافة ، والمقالات ذات الاسانيد الطويلة . فلو كان الامر كذلك لتحدد نطاقه ، وقصر مداه . فان التوجيه قد يكون بقصيدة رائعة ، او قصة جميلة — اذا صدرت عن تفكير عميق شامل — مثل ما يكون بمقال علمي او بحث استقرائي . فالمقصود هنا ليس القالب ، وانما التعمق والشمول والاتصال الوثيق بالحياة الحاضرة .

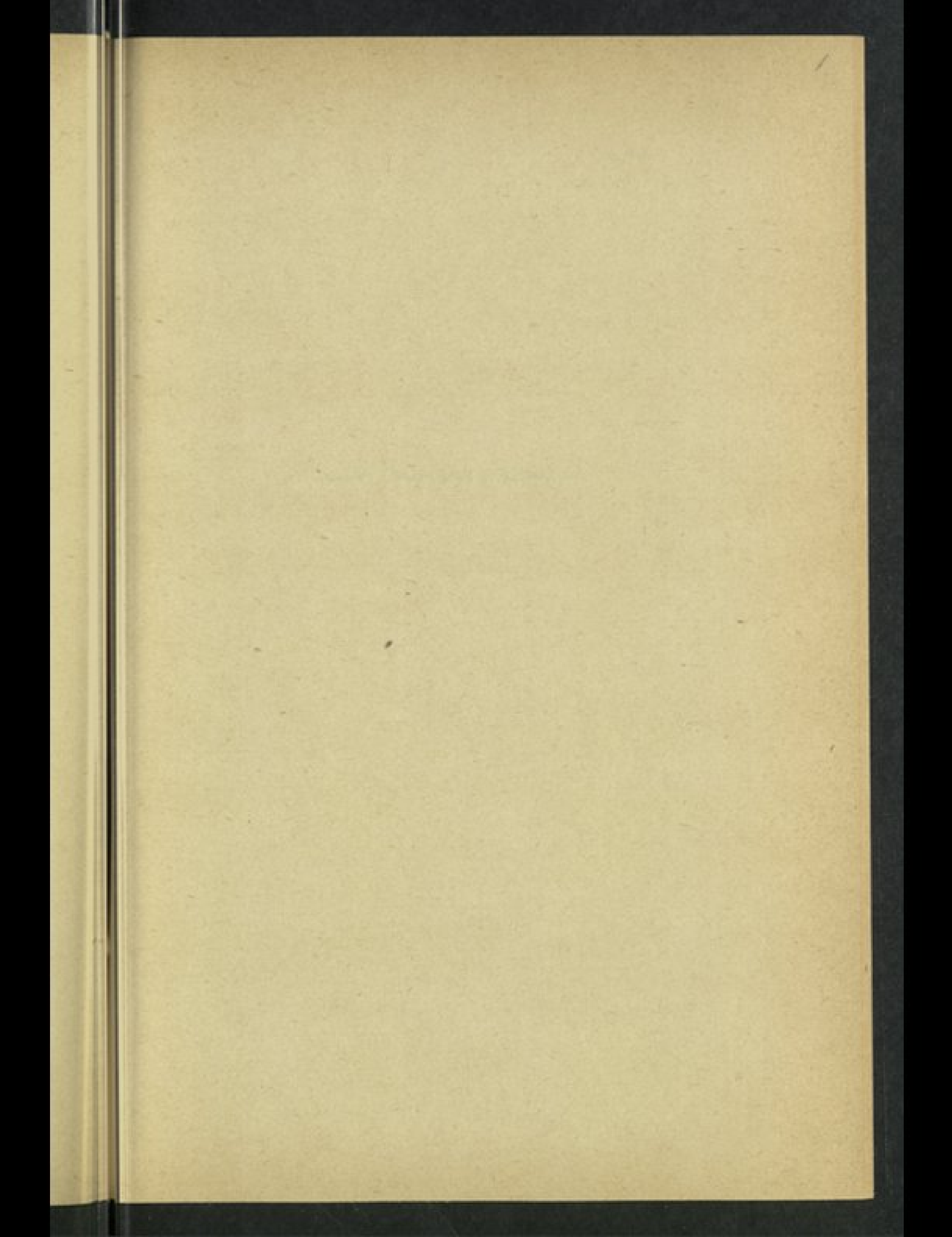
لسنا نعيش اليوم في عصر ترف عقلي ورفاهية فكرية . في عصور الترف والرفاهية ، قد يسمح للكاتب ان يقول : « لي الحق ان اكتب

ما اريد واعبر عما في نفسي كما اشاء»، وللفنان ان ينشد: «انني اقصد الفن للفن نفسه»، وللعالم ان يصرح: «انني اهتم بهذه او تلك من الابحاث الجزئية الضيقة». ان عصرنا هو عصر ازمة فكرية وضيق عقلي. وكما انه لا يسمح للناس في زمن الازمة المالية ان يبذروا اموالهم في سبيل شهواتهم الخاصة وامورهم التافهة، كذلك يجب ان لا يسمح لقادة الفكر في عصر الضيق العقلي والازمة الفكرية ان يبددوا قواهم في المسائل الطفيفة والابحاث الجزئية.

فعلى كل منا عندما يهم بتحبير مقال او القاء خطبة ان يتساءل بصراحة: «الى ماذا ارمي؟ أتراني اضيف بمقالي الى هذه الفوضى الفكرية التي يتخبط بها عالمي واقذف بعنصر جديد الى العناصر التي تتطاحن في محيطي، فازيد في بلبلة امتي واضطرابها الفكري، ام انني اعمل لتوجيه قوى هذه الامة العقلية نحو فكرة صائبة او عقيدة واضحة؟»

فاذا لم تكن غايته من هذا النوع الاخير، فخير له وللامة ان تظل كلماته مدفونة في نفسه، وان يبحث له عن طريقة اخرى يخدم بها امته ولغته.

# الثقافة الصحيحة وعناصرها



من مميزات الحيـاة العقلية المضطربة التي نتخبط فيهـا في العـالم العربي اليوم اننا نتكلم لغات مختلفة تختلط فيهـا المعاني ، وتتلابس الفكر والآراء . فترى الكلمـة الواحـدة تجري على السنتنا ، او تتردد في جرائدنا ومجلاتنا ، فاذا هي تحمل المعاني المتضاربة المتناقضة ، واذا هي قد اكتسبت الواناً من الفهم مضطربة متنافرة تجعل صعباً عليك ان ترسم في ذهنك صورة صحيحة عنها . وانت ان حاولت ان تتيقن ما يعني محدثك بهذا التعبير او ذاك ، وان تربطه بمعانٍ دقيقة وحـدود ضيقة ، ما استطعت الى ذلك سبيلا ، بل اصطدمت بطائفة من التعميمات الغامضة والآراء المترجرجة لا تروي غليـل الباحث المدقق . ويعظم خطر هذه الظاهرة في تفكيرنا عندما يكون التعبير رائجاً تتداوله العامة والخاصة ، او تكون له صلة بجوهر حياتنـا الحاضرة وباسس الحياة الجديدة التي نعمل في بنائها .

من أهم هذه التعابير واكثرها جريا على الالسنة لفظة «الثقافة» . فما اكثر ما نتحدث عن « الثقافة » عموما ، او عن هذه او تلك من الثقافات ، او عن الشباب المثقف ، او نهضتنا الثقافية الحـاضرة او المستقبلة . ولكن ، ما احوجنا ، قبل ان نلج هذه الابحاث الدقيقة ،

الى ان نعود الى انفسنا ، ونقلب لفظة « الثقافة » على وجوهها ، فنوضح غامضها ونبرز خفيها ، حتى نتمكن من شق طريقنا اليها على هدى وبصيرة . ونحن اذا حاولنا عمل الايضاح هذا وجدنا انه ليس سهلا قريب المنال ، فهو يتطلب منا ان ننفذ بتفكيرنا الى جوهر الامور ، ويفرض علينا ان نبذل جهداً عقلياً وعلماً ومعرفة لا قبل لأكثرنا بها . فاذا اقدمتُ الآن على هذا الامر ، وسعيت الى ايضاح المقصود من هذا اللفظ الذي يدور حوله كثير من تفكيرنا ، فلا افعل ذلك لأُقدم نتائج نهائية ، وآراء لا تقبل التغيير والتعديل ، بل لاثير اهتمام الباحثين بضرورة هذا العمل الايضاحي ، فيعمدوا الى هذه وغيرها من الالفاظ الاساسية في لغتنا العقلية الحديثة ، ويأخذوها بالبحث والتمحيص ، حتى ينبثق من احتكاك الفكر وتصادم الآراء نور يهدينا في ما يكتنفنا من ظلمات .

*

ولعل خير ما نبدأ به ان نبرىء « الثقافة » من كثير من المعاني التي غشيتها ولابستها في اذهاننا دون ان يكون لهذه المعاني في الواقع صلة حقيقية بها . فاذا خلعنا اولا عن الثقافة ما ليس منها ، سهل علينا بعد ذلك ان نعرف حقيقة ما هي ، ونتصل بروحها وجوهرها .

ليست الثقافة ان تجوز احد المعاهد العليا ، فتخرج منه حاملا

شهادة ، معداً لمزاولة حرفة من الحرف . فليست الشهادة — مهما علت — لتدل بنفسها على ثقافة رفيعة في نفسك ، وليست ممارسة الحرفة — مهما بلغت فيها من المهارة والاتقان — لتجعل وحدها منك رجلا مثقفاً ، بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . فلكم من طبيب يحسن تشخيص ادواء الجسم ، ويجيد استخدام المبضع ، وهو — مع ذلك — محدود الفكر ضيق الافق . ولكم من محام يعرف مداخل الشرع ومخارجه ، ويتقن صوغ الحجج وتفنيدها ، ولكنه لا يستطيع ان يسمو الى اجواء العقل الصافية ، ويتذوق نعم الروح المحيية . ولكم من صحفي قد برع في رواية الاخبار وتحبير المقالات وهو بعد فقير النفس جدب الفؤاد . ولكم من استاذ او متخصص في علم او فن ، قد حصر نفسه ضمن دائرة موضوعه الضيقة ، فضاع بين الجزئيات التافهة واخطأ جوهر الاشياء وقيمتها الصحيحة .

وليست الثقافة ان تحشو دماغك بمعلومات متفرقة مستمدة من شتى المصادر ، تختلط في ذهنك ويتراكم بعضها فوق بعض ، فتطغى بها على الناس في كل مناسبة او غير مناسبة . فقد تكون هذه المعلومات — على وفرتها — جزئية فرعية لا تنفذ الى اعماق الحقيقة ، ولا تمس اسس الحياة . وقد تظل متصلة بعقلك وروحك اتصالا خارجياً لا تبلغ معه الى صميمها ولا تؤثر بهما . ولعلك تبلغ ما يطمع

فيه البعض فتصبح مكتبة نقالة تحوي شيئاً من كل شيء ، وتبقى ، مع ذلك ، بعيداً عن معنى الثقافة الصحيح ، ودون مستواها السامي .

ولست تصبح مثقفاً باكتسابك طلاقة في اللسان ، او ظرفا في المجالسة ، او تفنناً في اساليب الكلام والمحادثة . فلكم لقيت في مجلس من مجالس اللهو او الادب شخصاً أثار اعجابك بطلاوة حديثه ، واستولى عليك بحسن تعبيره ، ثم اتصلت به وحككته ، فاذا هذه الثقافة المزعومة قشرة خارجية تخفي وراءها جدباً وعقماً ، واذا هذا اللمعان برق خُلـَّب خادع لا يتصل بنور داخلي ثابت ، او اشراق روحي فياض .

لا ! ليست الثقافة الحقة هذا او ذاك او ذلك او سواها مما اعتدنا ان نطلق هذا اللقب عليه ، وانما هي شيء اوسع دائرة واعظم مقاما : هي مركب فريد قد تآلفت فيه عناصر عقلية وروحية علوية خالصة ، ونسيج فاخر قد حيك من خيوط مستمدة من جوهر الفكر وصميم القلب .

*

تتألف الثقافة ، في نظري ، من عنصرين اساسيين : اولهما معرفة صحيحة يكتسبها المرء بالجهد العقلي الداخلي ، ولا يحملها

كمجرد رداء خارجي فحسب. وهذه المعرفة ذات ناحيتين هامتين، لكل منهما قيمتها الخاصة.

اما الناحيـة الاولى فهي اطلاع شامل متوازن على الفكر الاساسية التي تقوم عليها العلوم والفنون والاداب. فالحياة العقلية البشرية هي، في جوهرها، وحدة لا تتجزأ، ولا يمكن المرء ان يفهم جزءاً منهـا فهماً حقيقياً الا ضمن الاطار الاوسع الذي يضمهـا جميعاً. فرجل الفن يحتاج الى ان يطلع على مبادىء العلم الرئيسية، والاديب يجب ان يكون ملماً بالعقـائد الفلسفية التي صاغتها العقول الجبـارة خلال التاريخ البشري. ولعمري ان اشد خطر يجابهه الرجل المثقف هو ان يضيع بين جزئيات موضوعه الخاص، فيخطىء القيم والمقاييس الصحيحة، ويضيق بصره فلا يمتد الى مرامي الافق البعيد، كما ان اعظم مرض عقلي ينتاب الامة هو ان تتجه في ناحية واحدة من التفكير والشعور، فتنمو نمواً غير متزن او متناسب.

ونحن اذا جئنـا ندرس، بصراحة واخلاص، حياتنـا العقلية الحاضرة وجدنا عدم التوازن هذا بارزاً فيهـا باجلى مظاهره: فالعلم عندنا ضئيل جـداً، والفن يكاد يكون مفقوداً، والفلسفة لم تلد بعد، وكل جهودنا متجهة الى الادب، والى الشعر منه خاصة، كأن الثقافة تقوم على الادب وحده او كأن امة تسعى الى المجـد والحياة

الرفيعة تستطيع ان تجابه احداث الدهر بالاوزان والقوافي او تتغلب على ازماتها المحيقة بالاحكام الادبية والاراء النقدية .

ثم اذا تبصرنا في حقيقة الواقع وجدنا هذا الميل الادبي نفسه بعيداً عما نريده له من شمول وانسجام . فهو منقسم بين اتجاهين يتنازعانه : احدهما الى الادب العربي القديم ، والثاني الى الادب الغربي الحديث . واين نحن من الاديب الذي فهم روح الادبين ، فانسجما في شخصيته ، واستطاع ان يصحح نظرته الى كل منهما بفهمه للآخر ؟ بل اين نحن من الشاعر او الناثر الذي شعر بضرورة تثقيف نفسه بدرس الآثار الخالدة التي انجبتها الاداب العالمية الكبرى؟ والى اي حد بلغ فهم المثقفين بيننا للادب اليوناني ، او الالماني ، او الروسي ، او الهندي مثلا ؟ ثم اية محاولة جدية بذلها ادباؤنا لتغذية شعورهم الادبي واحيائه بما ينفثون فيه من روح الفنون الاخرى كالموسيقى ، والتصوير ، والنحت ، وسواها ؟

الحق ان افقنا الادبي ضيق يجب ان نوسعه بالتسلق الى القمم الروحية التي حلق اليها جبابرة الادب العالمي ، وان ميلنا الادبي عموما يجب ان يعدل ويعمق ويمتن بربطه بسائر الفنون التي تسعى مثله الى الجمال ، وبتغذيته بمبادئ الفلسفة والعلم التي تؤلف عنصراً هاما من عناصر الثقافة الحديثة ، بل من كل ثقافة رشيدة .

ولا شك في ان احدنا ليتساءل حالا : كيف يمكن الانسان ان يطلع هـذا الاطلاع الواسع على العـلم ، والفن ، والفلسفة ؟ أليست هـذه المحاولة ضرباً من المستحيل ، خصوصاً في هـذا العصر الذي تعددت علومه ، وتفرعت نواحي ثقافتـه ؟ أليس يقودنا هـذا الى سطحية خطرة ، ويمنعنا من التعمق والنفوذ الى جوهر الامور ؟

والجواب على هذا كله ان المقصود ليس اكتساب تفاصيل هذه العلوم والفنون وجزئياتها ، بل امتلاك الفكر والمبادئ الاساسية التي تقوم عليها ، وان وسائل النشر والتعميم الحديثـة تسهل لطالب الثقافة مهمته بما تجهزه به من مؤلفات عامة واضحة يضعها كبار العلماء والادباء ويبسطون فيها مبادئ العـلوم والفنون باسلوب اخاذ سهل التناول . على ان الشرط الاساسي لتحقيق هـذه الثقـافة هو ان تكتوي نفس الانسان بشعور الحاجة اليهـا ، ويبذل جهده الصادق لتحصيلها ، فاذا تم له ذلك وجد طريقها معبداً وسبيلها واسعاً .

وهناك عنصر له اهميته الخاصة في اكتساب هذه النظرة الشاملة التي وصفنا ، اعني به الفلسفة : فان جوهر الفلسفة ان تحقق في ماهية الامور ، وان تنظر الى المسائل في دوائرهـا الكبرى . فالفيلسوف لا يبحث في جزئيات المواضيع التي تتناولها العلوم والاداب والفنون ، بل ينفذ ببصره الى مبادئها الرئيسية فيجلوها ، ويدرسها موحدة

غير مجزأة . ولهذا ، وجب علينا ان نوسع ونعمق ثقافتنا الفلسفية ما استطعنا ، شرط ان لا تبقى هـذه الثقافة مجموعة معلومات خارجية عن المداوس الفلسفية والمذاهب الفكرية ، بـل تتعدى ذلك فتصبح معرفة داخلية تجابه مشاكل الحيـاة العظمى ، وروحاً تدفعنا الى التعمق في حقيقة الاشياء ، والنظر الى علاقاتها الكبرى ومشاكلهـا الرئيسية .

*

هذه اذن هي الناحية الاولى للمعرفة التي تميز الثقافة الصحيحة : اطلاع شامل متوازن ، مكتسب بالجهد العقلي الداخلي ، على المبادئ الاساسية التي يقوم عليهـا العلم ، والفن ، والفلسفة . اما النـاحية الثانية التي تتمم الاولى ، فهي العـلم المتخصص المتعمق ، ومؤداه ان يختار المرء لنفسـه وجهاً من وجوه هـذه الثقافة العامة ، ويتنـاوله بالبحث والتحقيق ، ويتقدم الى جزئياته ، حتى يشعر انه قد امتلك ناصيته ، وانـه يستطيع ان يجول في ميدانه دون ان يحس بوحشة او غرابة .

ان الاطلاع العام الذي صورناه سابقاً ينقل الينا احكام الغير عن هـذا او ذاك من المواضيع العلمية او الادبيـة . اما التعمق الدقيق الذي ننشده هنا فيضعنا ازاء هذه المواضيع نفسها ، ولا يترك حاجزاً

من غيرنا يفصل بيننا وبينها . فاذا تخصصت في علم من العلوم ، وجب عليك ان تماشي تطوراته ، وتتابع اكتشافاته واختراعاته ، وتتصل عقلياً وروحياً بالعلماء الذين يمشون به قدما . واذا كنت اديباً ، لم يكفك ان تطالع كتب النقدة والمؤلفين المحدثين ، بل دفعك اهتمامك الى الاصول نفسها التي تعكس لك نفوس الادباء وخوالج صدورهم ، والتي تنقلك الى جوهم فتعيش حياتهم ، وتحس شعورهم ، وتتكلم لغتهم . واذا كانت الفلسفة نصيبك ، اخترت لنفسك فريقاً من كبار المفكرين — او واحداً منهم — فعشت واياه ليل نهار ، تستمد من مؤلفاته آراءه وعقائده ، وتبثه مكنونات نفسك ، وعصارة فكرك ، وتربط حياتك بحياته وروحك بروحه في الجهاد الاقدس الذي تفرضه الفلسفة على صاحبها : الا وهو طلب الحق ، واستكشاف سر الوجود .

*

هذا التعمق الى الجذور في ناحية خاصة من نواحي الفكر ، اذا ضممته الى النظرة الشاملة لنواحي الفكر عموما ، توفر لك العنصر الاول من الثقافة الصحيحة الا وهو المعرفة المكتسبة . غير ان هذه المعرفة وحدها لا تكفي اذا لم تكنْ مدعومة بالعنصر الثاني وهو تلك القوى العقلية والروحية التي بها يكتسب المرء المعرفة

ويجعلها قسما من نفسه وشخصيته . ذلك ان هذا الاكتساب لا يأتي عفواً ودون بذل ومعاناه ، بل بجهاد نفسي يتطلب صفات عقلية وروحية خاصة لا تتم الثقافة السليمة بدونها ، بل هي اهم من المعرفة ذاتها ، لانها شرط لها : اذا لم تتولد في المرء لم يستطع ان يكتسب معرفة او ان يسير في الطريق التي تبلغ به الى الحياة العقلية الصحيحة .

اول هذه الصفات هي الرغبة الملحة في طلب الحق والتعطش اليه اينما كان ومن اي منبع سال . فالانسان السعيد في جوه العقلي ، المكتفي بما بلغ اليه ، القانع بنصيبه من العلم ، لا يبلغ هدف الثقافة ولا يتذوق ثمارها الشهية ، وانما يتيسر له هذا اذا كانت تثور في نفسه عاطفة متأججة تدفعه ابداً الى التقدم والاستزادة ، والى استكشاف الحقيقة من خلال المظاهر التي تكتنفها . ويضل من يعتقد ان الحقيقة تظهر نفسها كاملة لفرد من الافراد . وانما هو الجهاد في سبيلها ، والتدرج في اجلائها ، الذي يضيء في النفس نورها ، ويخلع على العقل بهاءه وسموه .

وتصاحب هذه الرغبة في طلب الحق صفة اخرى : هي الشك في ظواهر الامور ، والحذر من كل ما يقال ويذاع ، فاذا تعودنا اخذ كل شيء على علاته ، التبس عندنا الصواب والخطأ وغطى

الظاهر الباطن . ولذلك وجب ان نقلب كل امر على وجوهه ، ونشك بمظاهره الخارجية ، ونحكه بمحك البحث والتدقيق ، حتى يتبين لنا جوهره ، ونأخذ به عن علم واعتناق داخلي ، لا عن مجرد نقل وتصديق . ولقد اصاب من قال : الشك مفتاح العلم .

هذا البحث والتدقيق الذي يستوجبه الشك لا يتم دون صبر وجهد ومعاناة . ومن ظن ان الثقافة قريبة المنال ، او ان هدفها سهل البلوغ ، فقد اخطأ . ان على طالب الثقافة ان يكون مستعداً لدفع ثمنها الغالي بما يبذل من عرق جبينه وعصارة عقله ونفسه ، وان يقضي السنين الطوال جاداً عاملا ، يجلس الى مكتبه ساعات متتابعة دون انقطاع ويتوغل في مجاهل الفكر وحيداً فيحتاج الى اكثر مما يحتاج اليه الضارب في مجاهل الارض من شجاعة وصبر وقوة . ليست الثقافة لعبة تقنى ولا تسلية يسرّي بها الانسان عن نفسه ، وانما هي جهاد يسقى بدم القلب ، وصراع يستمر مدى الحياة .

ويماشي هذا الجهاد تواضع يشرق من جوانب النفس ، مستمد من تيقن المثقف المجاهد ان دائرة المجهول اوسع كثيراً من دائرة المعلوم ، وان العقل الانساني ضعيف ازاء اسرار الحياة ومشاكلها العظمى ، وان ما يصيب المرء في حياته من حقيقة ليس سوى جزء ضئيل لا يصح معه اي تكبر او افتخار . ويجر هذا التواضع الى

تسامح يحدونا الى النظر الى مآثر الغير بعين العطف والتقدير ، والى اخطائهم بروح العذر والمشاركة . فما نحن جميعاً سوى مجتهدين : من اخطأ منا فله اجر ، ومن اصاب فله اجران .

وفوق هذا كله — بل قبل هذا كله — اخلاص روحي للثقافة : فليس للثقافة من غاية غير طلب الحق ، والخير ، والجمال . فمن دنسها بغاية مادية ، او هدف شخصي ، فقد اخطأها ونزل بنفسه عن مستواها . ولكم بيننا من يقصد من علمه الى جمع المال ، او الى اكتساب الجاه والمقام ، او الى ارواء شهوة التزعم والظهور ! بل هل نستطيع اليوم ان نميز الثقافة الصحيحة من خلال هذه الغايات الصغرى التي اختلطت بها فافسدتها ؟

قديماً قال الامام الحجة الغزالي : « طلبنا العلم لغير الله فأبى ان يكون الا لله » . فما احرانا اليوم ان نعتبر بهذا القول الصائب ، وان نجعله دستوراً لنا في حياتنا ، وسنّة في سعينا الى الثقافة الصحيحة والعلم الكامل .

*

لقد تعودنا ان نقرأ الشيء الكثير عن ازمة المتعلمين في هذه البلاد وفي بعض البلدان العربية الاخرى . وما برح الآباء والبنون ، والحكام والموظفون ، يسمعوننا مر الشكوى من ازدياد عدد

المتعلمين ، ومن شدة تزاحمهم على وظائف الدولة وتهالكهم على المهن الحرة حتى غصت بهم المدن وغدوا عبئاً على البلاد ثقيلا بدلا من ان يكونوا لها في ازماتها الخانقة عوناً ونصيراً . والحق ان هـذه المشكلة المتفشية في حياتنا القومية تتطلب من القائمين على امر البلاد معالجة سريعة قاطعة قبل ان يستعصي الداء ويعدم الدواء : لانـه اذا كانت هـذه حالتنا ونحن في مستهل النهضة وفجر الحياة الجديدة ، وبعض البلاد العربية ما زالت قابلة لامتصاص عدد كبير من الشبان المثقفين ، فماذا يصبح امرنا بعد بضع سنين اذا تابعنا السير على هذا المنوال ؟

على ان الازمة « المعاشية » في حيـاة المتعلمين ليست شيئاً ازاء الازمة الحقيقية التي بها يتخبطون . فتلك خارجية مادية ، وهذه داخلية روحيـة . ان ازمة المتعلمين الحقيقية ناشئة عن سوء فهمهم ــ بل سوء فهمنا جميعاً : افراداً وجماعات ، حكومة وشعباً ــ لحقيقة العلم ، وجوهر الثقافة . فليس من هـذا الذي ندعوه علماً ، والذي يظهر بمظهر الشهادات والدرجات الطنانة ، الا اقل من القليل يخلو من العيب والنقص ويثبت لدى المحك والاختبـار ، وليس من هذه الثقافة التي نتبجح بها ، والقائمة على المعلومات المتفرقة الجزئية السطحية ، ما يتسرب ــ الا نادراً ــ دون المظاهر الخارجية الى صميم العقل واعماق الروح .

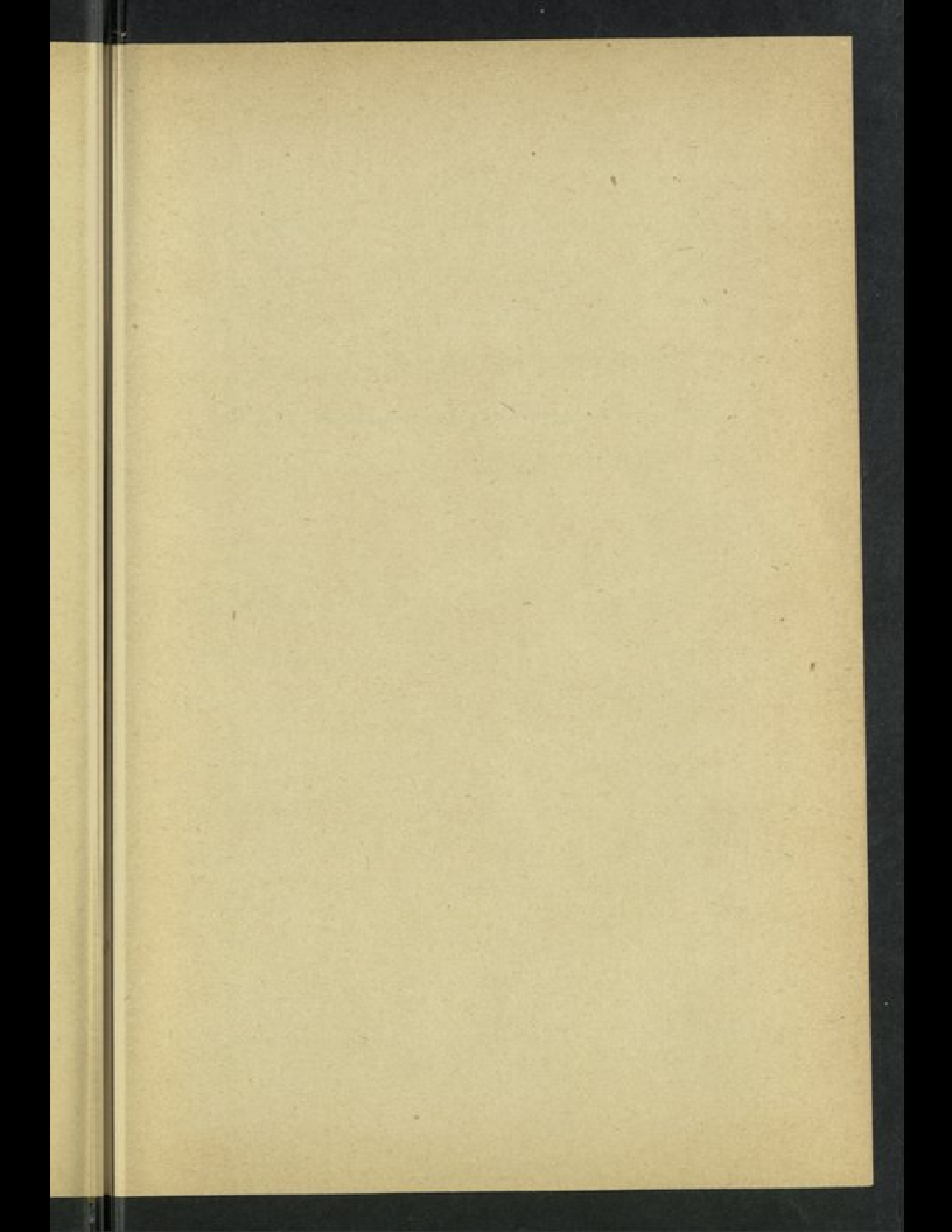
فاذا كان على الحكام والسياسيين منا في الحـاضر واجب عظيم

خطير في تسهيل سبل المعاش لجيوش المتعلمين وحل ازمتهم المادية ، فان على القائمين على امر التربية واجباً للمستقبل اعظم واشد خطورة : هو حل ازمة المتعلمين الداخلية الروحية : ذلك بان يستبدلوا بالمظاهر التعليمية التي يخلعونها على الطلاب الآن خلعاً ، وبالمعلومات التي يلقنونهم اياها تلقيناً — علماً صحيحاً ، وثقافة نقية الجوهر غنية العنصر تنمي عقول الناشئة وتنعش ارواحها ، فتخلق الامة خلقاً جديداً وتبعث فيها القوة والحياة .

*

ان من عرف منا شخصاً تتمثل فيه الثقافة الصحيحة الكاملة ، ونفذ الى اعماق روحه ، قد تذوق نعمة من اعظم نعم الدنيا واسماها . لقد خبر الادب السامي ينزل عليه من القمم الرفيعة حيث النظرة الواسعة والافق البعيد ، ونهل العلم الصحيح يتدفق اليه من اعمق المنابع واغزرها . ولقد تذوق معهما من جنة العقل ثمار الطلب والشك والجد ، وتنشق عبيراً محيياً يعطره التواضع والتسامح والاخلاص . هذه الشخصية الممتازة التي تنبعث معرفتها من نور داخلي دائم ، هذا العقل المنفتح المنتعش بقوة الروح ، وهذه الروح الصافية المنماة بغذاء العقل : هذا هو مثلنا الاعلى في جهادنا لخلق الرجل والمرأة العربيين الجديدين المشرقين بسنا الثقافة الصحيحة الكاملة .

# كيف نحمي ثقافتنا



ان الناظر في امر حياتنا العقلية الحاضرة ليرى ان ثقافتنا العربية معرضة لشتى انواع الاخطار ، خاضعة لقوى هدامة عديدة دائبة العمل بليغة الاثر . فمن جهود فعالة تبذلها بعض السلطات لاخماد ثقافة البلاد ، الى فقر في الموارد المالية التي تغذى بها هذه الثقافة ، الى اضطراب في الادارة المسيطرة عليها ، الى ضعف في اخلاق القائمين بها ، الى هذه الموجات الطاغية علينا من الغرب العاصفة بتراثنا الثقافي والاجتماعي — الى غير هذه من العوامل التي لا تحتاج الى نظر عميق لاكتشافها وتقدير اثرها .

من اجل هذا ، وجب على قادة الامة الموكل اليهم امرها ان يتدبروا هذه القوى ، ويدركوا حقيقة خطرها ، ويبذلوا جهدهم لدرء هذا الخطر وحماية الامة منه . ومن اجل هذا ايضاً ، وجب على كل من يهمه امر هذه الثقافة ويحرص على صحتها وسلامتها ، ان يساهم في النظر والتفكير لايضاح السبل التي تضمن لنا حفظ هذه الثقافة وصيانتها .

وليس امر هذا الايضاح سهلا هيناً . فهو يتصل بنواح عدة من حياتنا العقلية المرتبكة ، ويلامس كثيراً من مشاكلنا المستعصية

التي تزداد تعقداً يوما بعد يوم . على ان هذا العسر الذي يلقاه الباحث فيه يجب الا يقف حائلا دون ولوجه ، بل احرِ به ان يكون دافعاً الى ذلك ، لان المشاكل التي تواجه الامم في طريق تقدمها ونهضتها لا تكون عادة سهلة المأخذ ، يسيرة المنال . فخليق بمفكري الامة الا يهربوا منها الى عالم الوهم والخيال،بل ان يجابهوها مجابهة واقعية صريحة ، وخليق بأفراد الامة جميعاً ان يفهموا جهادهم على حقيقته ، وان يعرفوا ما يعترض تحقيق اهدافهم القومية من مصاعب وعقبات .

وبديهي انه لا يمكن في مقال واحد ان يوفى هذا الموضوع الخطير حقه ، وان تستقصى السبل العديدة المتفرعة التي تؤدي بنا الى حماية ثقافتنا . ولذلك سأقتصر في ما يلي على ايضاح الاسس العامة التي يصح ان يبنى عليها جهادنا الثقافي ، والمبادئ الكبرى التي يتحتم علينا وضعها موضع العمل اذا اردنا ان نحفظ ثقافتنا من البلبلة والضياع . ومبلغ رجائي ان يثير هذا عند قادة الرأي فينا البحث والتفكير ، وان يشرق من هذا البحث قبس من النور يهدينا الى السبيل السوي .

*

لقد اختلفت آراؤنا في الطرق الناجعة لمعالجة الادواء التي تنتاب

ثقافتنا العربية . فمنا من يرى ان بذور هذه الادواء تغرس في البيت العربي ، وان علينا ان نخنقها في مهدهـا برفع مستوى الأم لتؤدي واجبها القومي تأدية صحيحة فترضع ابناء الامة محبة بلادهم ولغتهم ، وتزرع في نفوسهم الاباء القومي والعزة الوطنية ، ومنا من يعتقد ان سبيل الخلاص هو في اصلاح برامج التعليم وتوحيدها في جميع الاقطار العربية ، ومنا من يجد في اللغة اساس الثقافة المتين فيصرف عنايته لحفظها سليمة من الاذى خالصة من الشوائب ، ومنا من يخاف على تراثنا الثقافي من عناصر المدنية الحديثة فينادي بالمحافظة على القديم من العلم واللغة والادب وصونه من العبث والخسران : الى غير ذلك من المقترحات المتفرقة التي تنطوي على كثير من الحق ، والتي يجب ان تنال من علمائنا ومفكرينا اكبر قسط من الدرس والاهتمام . غير انه من الواجب علينا كذلك ان ننظر الى المشكلة بصورة عامة ، وان نضع هذه وسواها من المقترحات في مكانها من الخطة الكبرى التي سنسير عليها في جهادنا الثقافي . هـذا ما سأحاوله في الاسطر التالية ، بكثير من الحيطة والحذر ، ليقيني من صعوبة الموضوع وتداخل اجزائه ، وما يكتنفه من اشواك ومزالق .

وابادر اولا الى القول ان هـذا الجهاد الثقافي لا يحقق غايته ويصيب هدفـه الا اذا كان مرتبطاً بجهاد قومي حي شامل يتناول

الحياة العربية من مختلف نواحيها ويسعى بها الى الحرية التامة بأصدق معانيها . فانّ عملنا لحفظ ثقافتنا من الضعف والانهيار يظل هزيلا مضطربا ما لم يتحد روحاً وقالباً بالعمل القومي الاوسع . هذا هو الشرط الاساسي والقاعدة الاولى: عنه تتفرع جميع المبادئ الاخرى، ومنه تنحدر جميع الصفات التي يجب ان تميز جهادنا الثقافي . وان لنا من الغرب في تاريخه الحديث اصدق العبر ، فان اشد الامم الغربية حرصاً على لغتها وادبها ومآثرها العقلية هي التي تنبهت الى حياة قومية جديدة ، واخذت تتطلع الى آفاق من العز والمجد بعيدة . نرى جهودها التي تبذلها في سبيل صيانة ثقافتها ورفعها مرتبطة اشد الارتباط بالجهود المنصرفة الى النهوض بنواحي حياتها الاخرى ، وان هذه الجهود كلها تستمد بعضها من بعض قوة ونشاطاً ، وتكتسب من اتحادها في النهضة القومية الكبرى معنى وحياة .

ومتى تبين لنا هذا ، برزت امامنا عدة مبادئ يصح ان نتخذها اساً للجهاد الثقافي المثمر . اولها ان هذا الجهاد الثقافي لا يمكن ان ينفصل عن الجهاد السياسي لتحرير البلاد وتقوية سلطانها . ذلك ان الاداة الحكومية هي من اعظم الوسائل المنظمة الفعالة لحفظ الثقافة ورعايتها ، فاذا كانت الامة تملك الحرية التامة في عملها ، تفتحت امامها السبل للقيام بهذه المهمة . اما اذا كان الامر

على عكس ذلك ، فثقافة البلاد تظل عرضة للخطر وملجأ للاهواء . ونحن نرى عند الامم الغربية الناهضة ان الحكومة توسع كل يوم في بسط نفوذها على امور التعليم والثقافة ، وتسعى جهدها لتنظيمها وحصرها في يدها ، وبذلك تحافظ على وحدتها وتصونها من عبث العابثين . ونرى كذلك ان الاقطار العربية التي تقدمت في معارج الاستقلال تستطيع ان تبذل في حماية الثقافة العربية واحيانها ما لا تقدر عليه الاجزاء الاخرى من الوطن العربي التي لم تتسلم بعد مقدراتها كاملة سليمة .

وان هذا الارتباط بين الجهاد الثقافي والجهاد السياسي ليشتد ويبرز في العصر الحديث خاصة . فالامم الطامحة الى التوسع والغلبة قد استنبطت الوسائل الفعالة للقضاء على ثقافة الشعوب المحكومة ، وعرفت ان ثقافة الامة هي عصبها المتين وحصنها الحصين ، وان اضمن سبيل لاخضاعها هو تبديد لغتها ، واضاعة ادبها ، وقطع الصلات بينها وبين تراثها . ولا شك في ان هذه الامم تختلف في الطرق التي تتبعها لهذه الغاية ، وفي المدى الذي تبلغه ، غير ان بعضها لا يتردد عن استخدام اشد الوسائل عنفاً ، ولا يتورع من السير الى ابعد مدى كي يفني ثقافة الشعب المحكوم افناء تاما ، ويمتصه امتصاصاً كاملا .

ولذا فمن العبث ان نأمل من جهادنا الثقافي ثماراً صحيحة ناضجة ما لم يكن مدعوماً بجهاد قوي واسع يرمي الى تأمين سيطرة الامة سيطرة كاملة على منظماتها التعليمية والثقافية ، والى تقويتها وتمكين سلطتها لتقف في وجه تلك الدول الطامحة التي اذا سادت عليها هدمت بأقصر حين ما بنته جهودهـا الثقافيـة بعديد السنين . وليس يعني هذا ان الجهاد الثقافي بنفسه لا يفيد شيئاً ، وانه لا يصح ان ننصرف اليه الا بعد ان نفرغ من جهادنا السياسي . فان العمل لحفظ الثقافة واحيائها يستطيع دائماً ان يجد لنفسه منفذاً بالرغم مما يحيط بـه من حدود ، كما انه يدعم هو نفسه العمل السياسي ويغذيه ، غير انه لا يستطيع ان يبلغ غايته ويؤتي اكله شهياً ، الا اذا تخطى تلك الحدود ، وعاش حراً طليقاً ، خصوصاً في هذا العصر الحديث الذي نعيش فيه .

والمبدأ الثاني للجهاد الثقافي ، المستمد من مبادىء الجهاد القومي الشامل ، هو ان يكون محدد الغاية ، واضح الهدف . فالعمل الذي لا يتطلع الى غاية واضحة لا يرجى له خير او نجـاح ، بل تتوزع جهوده ، وتتفرع قواه ، وتتسرب موارده الى هنا وهناك فلا تحدث اثراً ، ولا تعطي ثمـراً . فعلى الذين يقودون العمل لحفظ الثقـافة العربية ان يحددوا هذه الثقافة ، ويبينوا عناصرها التي تتكوّن منها ، واسسها التي تقوم عليها . من واجبهم ان يحيوا ماضيهـا الذي انبعثت

منه ، وان يكشفوا عن حاضرها الذي تضطرب فيه ، وان يوضحوا الرسالة التي ستؤديها في المستقبل . فليس عند ابناء العرب اليوم مفهوم صحيح مشترك للمقصود من الثقافة العربية . هم يشعرون بروابط ثقافية توحدهم ، ولكن هذه الروابط لم تتبين لهم بعد على حقيقتها وتمامها . وما من امة الا ولها عبقرية خاصة ، هي وليدة العوامل المختلفة التي تتفاعل في حياتها ، وهذه العبقرية تتمثل في ثقافتها التي تتميز من ثقافات الامم الاخرى . فما هي عبقرية الامة العربية الممثلة في ثقافتها ، وما هي خصائصها ، ومن أي المصادر تحدرت ؟

هذه وامثالها من الاسئلة تجابه الامة العربية في بعثها الجديد، وتتطلب أجوبة صريحة لا مواربة فيها ولا التواء ، أجوبة تنطوي على امور ثلاثة جوهرية : اولها ماضي هذه الثقافة ، وهذا لا يتضح لنا الا بعد ان نسير في إحياء تراثنا شوطاً بعيداً ، ونعمل في هذا الاحياء عملا متزناً يتناول جميع نواحي التراث من علم وفلسفة وادب . وثانيها : حاضر هذه الثقافة ، وهو لا ينكشف الا اذا لمسنا القوى التي تعصف بها وتعمل على تبديدها ، وفهمنا الثقافة الغربية التي تطغى علينا فهماً صحيحاً وحددنا موقفنا منها . وثالثها : مستقبل هذه الثقافة ، وهذا لا يتبين الا لمن فهم تطور الامم والمدنيات ، وأوتي من بعد

النظر وصفاء الذهن ما يتطلع به الى الآفاق البعيدة ليرسم السبيل الجديد بثقة واطمئنان . هذا كله متوجب على قادة الفكر من العرب اليوم ، كي يبلغوا الى ذلك التوضيح الذي بدونه لا يكون ثمة حفظ للثقافة او احياء ، اذ ما الفائدة من العمل لحماية الثقافة العربية ، اذا لم نكن ندري ما هي هذه الثقافة .

وبعد ان تتضح الغاية ويتعين الهدف بالكشف عن جوهر الثقافة العربية ، يعمد الى الطرق الفعالة لبثها في نفوس ابناء الامة وصيانتها من الفساد . وهنا يبرز المبدأ الثالث في العمل ، وهو ، كالمبدأين السابقين ، منبثق من روح الجهاد القومي الاكبر . هذا المبدأ الثالث هو : « الشمول » . فكما ان الجهاد القومي الصحيح يرتكز على عموم افراد الشعب ، ويصدر من صميم حياتهم جميعاً ، ولا ينحصر في طبقة دون طبقة ، او في فرد دون جماعة ، كذلك الجهاد الثقافي لا يتم الا اذا امتزج بروح كل فرد من افراد الامة ، وكيّف اعماله وتصرفاته ، بل حياته بكاملها . فهو في الأم تربي طفلها وتنشىء نفسه على حب لغته وثقافته ، وهو في المعلم يحيي ادب الامة وتراثها الخالد في نفوس طلبته ، وهو في الاديب يستمد من حياة الامة رسالتها ويرسم امامها مثلها العليا ، وهو في الموظف يجند قوى الدولة للدفاع عن حياتها الروحية والعقلية ، وهو في الفلاح والتاجر ،

في العامل والطبيب ، في الكبير والصغير ، في الغني والفقير، في كل نفس حية من نفوس الامة ، وكل نفَس من انفاسها .

هذا الشمول في الجهاد هو ما يجب ان تسمى اليه الامة العربية لاحياء ثقافتها وحفظها من الاهواء . وطبيعي ان افراد الامة لا يهبون هذه الهبّة الموحدة الشاملة للدفاع عن ثقافتهم ، الا اذا كانوا يفهمونها حق الفهم ، ويتصلون بها اتصال الروح بالروح . ولذلك وجب ، قبل ان تجمع نفوس الامة على حماية الثقافة العربية ، ان تشيع هذه الثقافة في تلك النفوس جميعاً ، وتنصهر في بوتقتها وتعمر كل ناحية من نواحيها . بل ان هذا الوعي الصحيح الشامل للثقافة هو نفسه افضل وسيلة لحمايتها والذود عنها . اذ انها متى اختلطت بنا اصبح الدفاع عنها دفاعا عن نفوسنا ، وذبّا عما هو اعز من حياتنا . اما اذا ظل فهمها مقصوراً على فئة قليلة مترفعة ، ولم يتسرب الى جمهرة الشعب ولم يسر في عروقهم ، فمن الصعب حفظها ، ومن العبث العمل لتأمين سلامتها .

على ان هذا الشمول لا يتم ، ولا يؤتي أكله ، ما لم تتضافر جهود ابناء الامة وتنتظم . فالجهود المتفرقة — مهما غزرت — لا تقوم بالاعمال العظيمة . بل قد يعاكس بعضها بعضاً ويؤخر واحدها مسير الآخر . ولذلك وجب على المختصين في كل ناحية ان يلموا

شعثهم ، ويوحدوا عملهم ، ويرفعوا لواء جهادهم متماسكين متصافين . وقد بدت طلائع هذا التنظيم في ما نشاهده حولنا من جمعيات علمية ومجامع أدبية ، ومن نقابات وحلقات وروابط ، ولكن هذه الطلائع لا تزال ضئيلة العدد مضطربة السير ، ولا يزال بيننا وبين قلب الحركة التنظيمية مدى واسع وشوط بعيد .

من اجل ذلك اشرت اشارة خاصة الى قسط الحكومة الوافر في العمل الثقافي . فالحكومة اعظم قوة لتنظيم هذا العمل وربط اجزائه وتوحيد القائمين به . فهي بفضل ما تملك من مال ورجال ، ومن سلطة ونفوذ تستطيع ان تسيطر على منظمات التعليم وعلى سواها من مجاري العلم والادب كالصحافة ، والاذاعة اللاسلكية ، والجمعيات الثقافية ، فتنفخ فيها روحاً واحدة وتضاعف جهودها وانتاجها . ولست اقصد بذلك ان انتقص قيمة العمل الشعبي الحر ، وان اضع العبء كله على عاتق الحكومة ، فهذا مما يخمد روح العمل ويقطع الصلات الحية التي تربطه بقلوب الشعب . وانما اريد ان الفت النظر الى المجال الواسع الذي ينفسح امام الحكومة من هذه الناحية ، والذي نرى حكومات الغرب اليوم تسعى الى التسابق اليه والتوغل فيه كي تؤمن التنظيم المطلوب لاحياء الثقافة القومية وحفظها . واذا كانت الامم الغربية قد وجدت حاجة الى مثل هذه الفعالية الحكومية ،

فان الحاجة عندنا أشد وأعظم ، لكثرة العناصر الغريبة التي تتلاعب بثقافتنا ، والقوى المختلفة التي تتقاسمها . فاذا لم توحد هذه القوى وتضبط تلك العناصر بتنظيم قوي شامل ، اختلت ثقافتنا وعصفت بها ايدي الزمان .

هذا التنظيم المتين الواسع — هذا التنظيم الذي بدأنا نشعر بضرورته ونقدر أهميته في شتى مناحي حياتنا — هو الاساس الرابع الذي يجب ان يقوم عليه بناؤنا الثقافي الجديد .

بقي امر أخير : هو ان العمل لحفظ الثقافة وصيانتها لا يستحق ان يدعى جهاداً الا اذا كان كل فرد من القائمين به يشعر انه انما يؤدي رسالة في الحياة ، هي عنده مقام الحياة نفسها او اوفع ، وانه ليس مأجوراً للقيام بعمل معين ، بل جندياً من جنود الامة مضحياً بكل شيء في سبيل نهضتها وعزها . وقد دلت اختبارات الامم السالفة ان الجند المأجور لا يحمي وطناً ، ولا يقي شعباً من الهلاك ، وأن امل الامة الوحيد هو في الجنود الذين يحاربون عن عقيدة وايمان لمثل عليا في الحياة . وما من امة في المستقبل يمكنها ان تفوز في ميدان القوميات المتطاحنة الا اذا كانت كلها — برجالها ونسائها ، بكبارها وصغارها — جيشاً مجنداً يعمل كل فرد منه في ناحية من نواحي الحياة القومية ، ويبذل نفسه بصدق وعزيمة واخلاص .

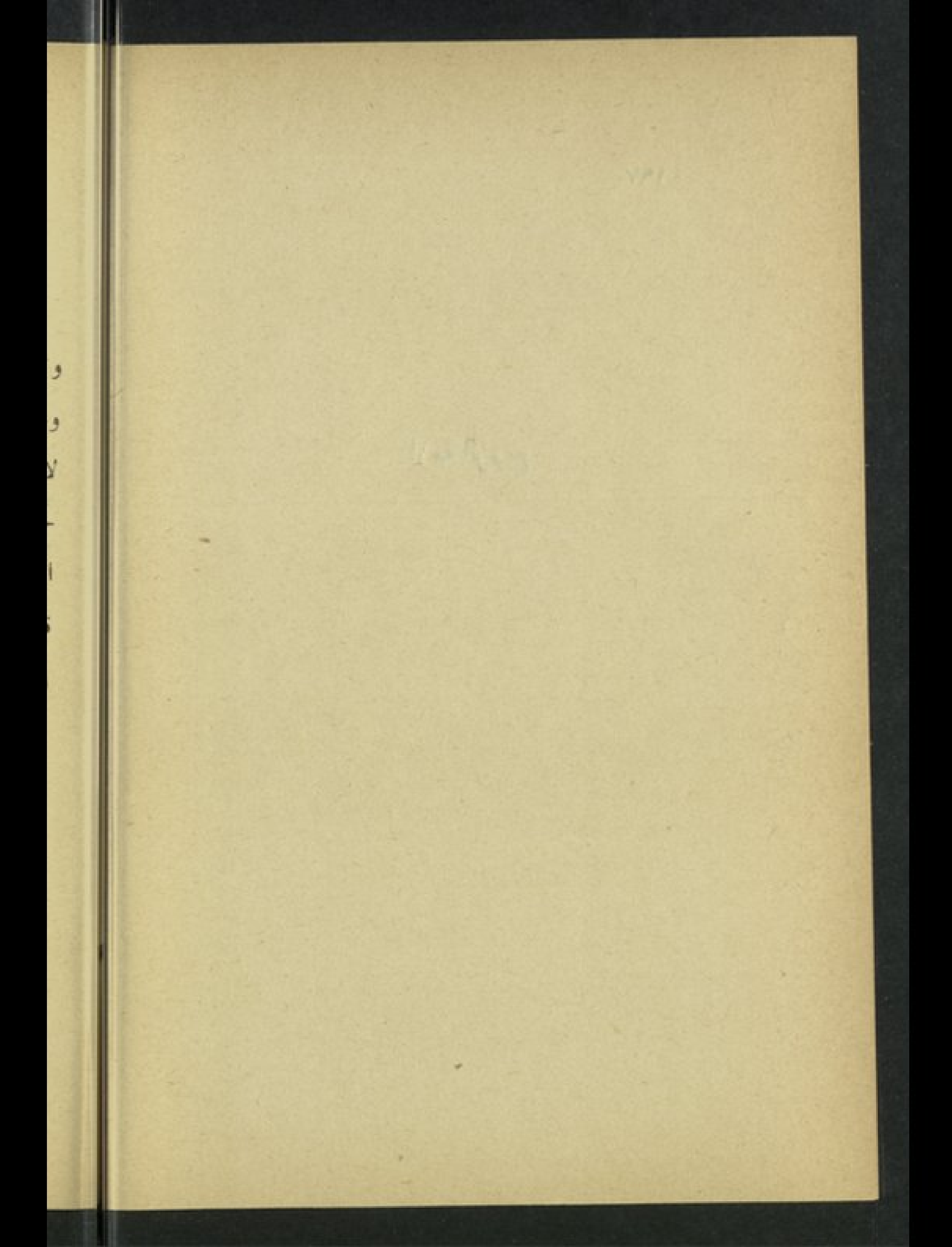
بين هؤلاء الجنود ، يتميز فريق خاص له في الجهاد الثقافي النصيب الاوفر والقسط الاوفى . هو فريق القائمين بامر الثقافة بشتى مظاهرها : المعلمون في المدارس ، والادباء والعلماء والفلاسفة ، والمسيطرون على المنظمات الثقافية الحكومية . هؤلاء هم قادة هذا الجهاد ، ورافعو لوائه ، ومديرو دفته . هؤلاء هم الذين يجب ان يمثلوا بشخصيتهم ، وأعمالهم ، وحياتهم ، الاخلاص والاندفاع في سبيل المثل العليا ، والعمل الجاد ليل نهار لتحقيقها . واني لأخشى ان هؤلاء القادة عندنا لم يتوصلوا بعد الى تأدية هذه الرسالة الرفيعة تأدية صحيحة . ألا تراهم يقومون بعملهم بشكل « ميكانيكي » ، فلا ينفخون فيه روحاً ولا يكسونه معنى وحياة ؟ أليسوا منقسمين على انفسهم تتوازعهم الاطماع الشخصية والمنافسات المحلية ؟ ألست تجد كلا منهم يسعى وراء المادة الدنيئة أو الجاه الفارغ ، وينحط احياناً الى اسفل دركات الحسد والبغضاء ، بدلا من ان يرتفع الى مراتب النقاء والاخلاص ونكران الذات ؟

هذا ، فيما اعتقد ، هو اضعف نقطة في جهادنا . فاذا لم يشعر معلمونا وادباؤنا ومسيرو امور المعارف عندنا ، انهم ليسوا موظفين يتقاضون رواتب ، ويتنازعون على مراكز ، بل حملة رسالة ، واصحاب دعوة قد بذلوا لها حياتهم ، وباعوا من اجلها نفوسهم ،

ـ اذا لم يتم لنا هذا ، ظل عملنا الثقافي عملا آلياً مضطرباً ، وتدنتى عن المقصود الرفيع من الجهاد تدنياً عظيماً .

تلك هي الاسس الخمسة التي يجب ان نقيم عليها جهادنا الثقافي : الاستقلال في ادارة شؤوننا الثقافية ، ووضوح الغاية ، وشمول الوعي والعمل ، واحكام التنظيم ، والاخلاص في تأدية الرسالة . وهي كلها مرتبطة أوثق الارتباط بالجهاد القومي الاوسع ومستمدة منه . فهل لقادة الرأي والعمل بيننا ان يرفعوا علم هذا الجهاد الثقافي عالياً وينظموا العناصر المشتركة فيه ؟ ان القوى المتطاحنة في العصر الحديث لا ترحم امة اهملت روحها وتركت ثقافتها في يد الدهر عرضة للعواصف والاهواء . فعسى ان نتنبه للاخطار المحدقة بنا ونسعى لدرئها ، قبل ان تطغى علينا هذه القوى وتبيدنا في نزاعها وتطاحنها ، ونحن غافلون .

# ازمة الروح



تجتاح البلاد العربية اليوم ازمات عنيفة تضيق عليها الخناق ، وتخمد حياتها او تكاد . فانى التفت ضيق وارتباك ، واعباء ثقيلة ، وعقبات صعاب . هنا الازمة السياسية التي استعصى امرها ، والتي لا تكاد تحل منها ناحية حتى تتعقد نواح ، ولا تتقدم نحو الانفراج خطوة الا لتعود الى الاحتباط خطى ومراحل . وهناك الازمة الاقتصادية التي يرتسم طيفها امام كل عين ، ويثور القلق منها في كل قلب ، ويتبادر حديثها الى كل شفة ولسان . وهنالك الازمة الاجتماعية الناتجة عن العراك بين القديم والجديد في العادات والتقاليد والاخلاق ، والازمة الفكرية المتكونة من تصادم شتى الاراء والفكر والعقائد والنظريات .

على ان وراء هذه الازمات كلها ازمة اخرى هي ، في نظري ، اعظم منها كلها خطراً واعمق جذوراً : هي الازمة الروحية . هي ازمة النفس لا ازمة الجسد والمادة . هي معضلة القلوب لا معضلة الجيوب . هي تراخي الهمة وخور العزم . هي غلبة اليأس على الامل ، وطغيان التشاؤم على التفاؤل . هي الحقد الذي يشتت الصفوف ، والحسد الذي يفرق بين القلوب . هي فقدان الثقة وضعف الايمان ، وايثار المصلحة

الخاصة على النفع العام ، وزوال معنى الاخلاص ، والتضحية ، وانكار الذات .

اجل ! ان اساس ضعفنا ومصدر علتنا هو هذه الازمة الروحية الخانقة التي نتخبط فيها . وجميع الازمات الاخرى — على ثقل وطأتها واستعصاء مشاكلها — ما كانت لتزعزع اسس حياتنا وتقضي على استقرارنا وعلى منابت القوة والامل فينا ، لولا الازمة الروحية التي اخمدت قوى نفوسنا ، وركمت ادران المادة على منابع الفيض الروحي في شخصيتنا الفردية والاجتماعية فطمرتها .

دونها الازمة الاقتصادية مثلا . ليس لاحد ان ينكر تعقدها او يستهين بشأنها ، فخطرها عظيم وعبئها ثقيل . ولكن ما اخف تأثيرها في النفس المؤمنة المجاهدة التي تهزأ بالمادة في سبيل تحقيق اهدافها ، وتكتفي بما يقوم بأودها — وما اقله لمثل هذه النفس — لتحصر جهودها في خدمة مبدأ سام او مثل أعلى . وان نظرة واحدة على سير الرجال الذين كان لهم شأن في تقدم امتهم او خدمة الانسانية لكافية لتظهر ان المصاعب المادية لم تكن لتقف حجر عثرة في طريقهم ، بل انهم ثبتوا عليها وغلبوها بفضل قوى العزم والتضحية والايمان وسواها من قوى الروح التي كانت تطفح بها نفوسهم ، والتي فقدناها نحن العرب اليوم ، فنشأ عن فقدنا اياها هذه الازمة

الروحية العميقة التي نعانيها .

*

على ان بين هـذه الازمة الروحية والازمة الاقتصادية المتأثرة بها وجوهاً من الشبه عديدة يحسن بنا ان نلاحظها كي يتيسر لنا فهم اسباب ازمتنا الروحية ونتائجها .

فكما ان المعضلة الاقتصادية التي نشكو منها في هـذه البلاد هي جزء من المعضلة الاقتصادية العالمية التي تتخبط بها بلاد الارض اجمع، كذلك ليست ازمتنا الروحية الا قسما من الازمة العامة التي خيمت فوق كل قطر ، وانتشرت بين كل فئة من الناس في هـذا العصر . هي تيار قوي يجتاحنا من مختلف الجهات ، ويجرف كل ما كنا نتمسك به من عقائد وتقاليد ، ومن مذاهب ومبادئ . هي عاصفة هوجاء تهب على ما وصل الينا من تراث ماضينا فتقتلعه من جذوره، وتفصم العرى التي تربطنا باجدادنا فتذهب بما تحدر لنا منهم من عزة واباء وحلم وكرم ، ومن رغبة في الحق وزهـد عن الباطل ، ومن ثروة عقلية وادبية وروحية هي جوهر ما انتجته الامة العربية وما قدمته للثقافة والمدنية .

وكما انه لا يمكننا في عالمنا الصغير ان نؤثر على مجرى الازمة الاقتصادية العالميـة وتحـوله عنا ، كذلك ليس باستطاعتنا ان نصد

تيار الازمة الروحية الذي يجتاحنا من كل صوب وناحية . على انه بوسعنا ان نقوي كياننا الاقتصادي الخاص بحيث نصبح اقدر على مجابهة المشاكل الاقتصادية العالمية فتخف وطأتها علينا ويقل تأثيرها في حياتنا . بوسعنا ان نهتم بزراعتنا ، ونعنى بصناعتنا ، ونحافظ على تجارتنا ، فنقوي مناعتنا الداخلية حتى نصمد تجاه العوامل الاقتصادية الجبارة التي تهاجمنا من الغرب . لكنك ترانا ، بدلا من هذا ، نهمل منابع ثروتنا ومصادر غنانا ، فنزداد ضعفاً على ضعف ، ونضيف الى الازمة العامة مشكلتنا الاقتصادية الموضعية الخاصة . وشبيه بذلك امر حياتنا الروحية . فعوضاً من ان نستغل ثروتنا الروحية ونقوي كياننا النفسي لنجابه القوى الهدامة التي تحيط بنا من كل جهة ، تجدنا نبدد مواردنا الروحية تبديداً ، فتتلاشى مناعتنا الداخلية ونخر صرعى امام حوادث الدهر وصروف الزمان .

فاسباب ازمتنا الروحية هي اذن ، كاسباب الازمة الاقتصادية ، على نوعين : منها ما هو عام وشامل للعالم اجمع وليس لنا عليه ادنى قدرة او تأثير ، ومنها ما هو خاص بنا ومتوقف علينا . وهذا النوع الثاني ، الممكن اصلاحه وتلافيه ، هو الذي يجب ان نهتم به وهو الذي يدور عليه حديثنا الآن .

*

فما هي تلك العوامل الخاصة التي ما زالت تزيد ازمتنا الروحية استفحالا حتى جرتنا الى ما نحن عليه من فقر روحي وانحطاط نفسي ؟ هنا ايضاً نلاحظ اوجه الشبه بين ازمة الروح وازمة المادة .

لو سألنا احد رجال الاقتصاد عن الاسباب الموضعية للازمة الآلية في سوريا مثلا لبدأ بالقول ان بلادنا هذه ضيقة الحدود ، محصورة الجوانب والاطراف ، قد احيطت بالحواجز والسدود — واكثرها من صنع الانسان — فضيقت مجال العمل وقيدت قوى الانتاج . فالصلات الاقتصادية الصحيحة بيننا وبين بقية البلاد العربية قد انقطعت او كادت ، ومهما جد افرادنا وجماعاتنا تظل جهودهم محصورة ضمن نطاق صغير لا تتعداه ، فلا تغني انفسهم والبلاد الا قليلا .

واذا كان محيطنا الاقتصادي ضيقاً محدوداً ، فما اضيق محيطنا الروحي ! اترانا نتريث احياناً في تيار حياتنا اليومية الجارف لنتساءل عن ضيق عالمنا الروحي او اتساعه ؟ يقيناً ان عالم اكثرنا لا يتعدى في اغلب الاحوال حدود انفسهم الضيقة . نحن نهتم بغاياتنا الشخصية واهوائنا الخاصة ، كأن العالم باسره خلق لنا ويجب ان يسيّر من اجلنا . نحلم بغنى نقتنيه او جاه نكسبه او عز نناله . وان اتسعت بعد ذلك دائرة اهتمامنا فلكي تشمل اسرتنا وما ورثت من نسب وما تحتل من مقام ، او بلدتنا وما تثور بها من مشاحنات وانقسامات ،

ومن مناورات وعصبيات . وقد يتعدى اهتمامنا هذه وتلك الى الوطن باسره ، فنتحدث عن احواله ومشاكله ، وماضيه وحاضره ومستقبله، لكن نظرتنا تظل ضيقة وعالمنا يبقى محصوراً . ذلك ان احدنا لا يستطيع في كل ما يقول ويفعل ان يتجرد عن غاياته الخاصة ، بل يظل ابداً متطلعاً الى الوظيفة التي سيعتليها او الجاه الذي سيحرزه او الفوز الذي ستصيبه جماعته . اما النظرة الواسعة التي تتناول القضايا من وجهتها العامة ، اما الهدف البعيد الذي لا يقف عند الغايات الصغرى والروابط الشخصية ، فقلما نرى لهما اثراً في محيطنا الروحي الحاضر . فعالمنا الروحي اذن ضيق بمعنيين : اولهما اننا قليلا ما نهتم بما هو بعيد من انفسنا ، والثاني انه حتى عندما تتسع دائرة اهتمامنا تظل قوانا الروحية ضيقة محدودة لاننا نبذل هذا الاهتمام من خلال اهوائنا الخاصة وغاياتنا الصغرى .

حقاً ان قيمة الانسان وثقافته وسعادته كلها تتوقف على اتساع عالمه الروحي . والرجل الامثل هو الذي يشمل عالمه الكون باسره والبشر بكاملهم . لا بل هو الذي يشق حجب الارض والسماء فينفذ ببصره الى ما وراء الكون ، وينطلق على اجنحة الخيال فيمتد نظره على جميع عوالم الطبيعة والانسان . هو الذي لا يكفيه الحاضر بمشاكله ومشاغله ، وانما يتبنى الماضي بميراثه وآلامه والمستقبل بآماله

واحلامه . فهو يحق ابن العالم باسره والزمان بكامله .

على ان الاحوال التي تمر بها البلاد العربية خاصة وبلاد العالم عامة تدعونا الى ان نوجه معظم جهودنا واهتمامنا الى وطننا العربي الذي يحتاج اليوم الى كل ما في قلوبنا من ايمان ، وفي نفوسنا من جد واخلاص ، وفي عقولنا من علم وذكاء . فلنوسع عالمنا الروحي حتى يضم هذا الوطن ضماً صحيحاً ، ويتحد به اتحاداً لا تشوبه غاية فردية او يضعفه هدف شخصي .

*

ويحدثنا رجال المال وارباب الاعمال ان من الاسباب الخاصة لازمتنا الاقتصادية فقر بلادنا وقلة مواردها . وهذا القول صحيح ، لكن الى حد . والاجدر ان نقول ان في بلادنا موارد كثيرة لم نحسن بعد استغلالها ، وان ازمتنا الاقتصادية ناشئة عن اهمالنا هذه الموارد لا عن عدم وجودها . وما يصدق عن الازمة الاقتصادية يصدق الى حد ابعد عن الازمة الروحية . ففي قلب كل منا ينابيع روحية قد شحت مياهها لما تراكم فوقها من الاقذار والاوساخ ، وموارد نفسية قد طغت عليها ادران المادة فلم يعد يتسرب منها الى حياتنا الخارجية الا قطرات ضئيلة لا تغني ولا تفيد . ولو انا عنينا بامر هذه المنابع الروحية العناية الصحيحة لفاضت على نفوسنا

بالطمأنينة والاستقرار ، ولذهبت بما نعانيه من شدة واضطراب .
ولكم تعتريني الدهشة ويستولي علي العجب عندما اقرأ في صحفنا ومجلاتنا او اسمع من منابر محافلنا ان هناك فرقاً كبيراً — بل هوة ساحقة — بين الشرق والغرب ، لان الاول روحي والثاني مادي . فهل يصح ذلك فينا نحن الشرقيين اليوم ؟ هل نحن منصرفون حقاً الى الامور الروحية في الحياة ؟ لا ! وانما الحق ان نقول ان مدنيات العصور القديمة التي زهت في الشرق ادت رسالة روحية ، وان مدنية العصر الحديث التي ازدهرت في الغرب لا تزال في شكلها الطاغي مادية . ولكن هذه المدنية الحديثة اخذت تجتاح الشرق ايضاً فلم تبق لروحيته اثراً يذكر ، وطما سيل المادة عليه فغمر جميع نواحي الحياة فيه . انظر في اية ناحية من حياتنا شئت تر انها متشربة بالمادة متعلقة بادرانها ، وما كانت المادة يوما من الايام اساساً للحياة الصحيحة او غذاء منعشاً للغبطة النفسية . زواجنا زواج مادي : نصبو في زواجنا الى البيوت المزينة والالبسة المزركشة والحجارة الكريمة ، لا الى القلوب المفعمة بالحب والتضحية والنفوس الطافحة بالصدق والاخلاص . علمنا علم مادي : ننشد من وراء علمنا المال الوافر والتجارة الرابحة والوظيفة العالية ، لا الثقافة التي تنعش العقول والخدمة القومية التي ترتاح اليها القلوب . ديننا دين مادي:

نعبد القوة العليا في الكون بالابنية الجبارة والمذابح الفخمة والمباخر المذهبة، لا بعواطف الفؤاد الملتهبة وخشوع النفس المهيب. سرورنا سرور مادي : نسعى اليه بالاجسام، لا بالقلوب والارواح . جمالنا جمال مادي : تنشده في الجسد البض والقامة الهيفاء، لا بالنفس السامية والقلب النبيل . فهل من عجب بعد هذا اذا طمت ادران المادة على ينابيع نفوسنا الروحية فمنعت عنا ما يفيض منها من قوة وامان، وسعادة وصفاء ؟ وهل من عجب اذا استعصت ازمتنا الروحية بعد ان ضعفت مناعتنا وتراخت نفوسنا ؟

*

ويقال ان من الاسباب الموضعية لازمتنا الاقتصادية اضطراب الاحوال وعدم الاستقرار وتعدد الاحزاب وكثرة الانقسامات والمنازعات . والحق، ان هذه البلاد قد مضى عليها زمن وهي كل يوم في حال :

كريشة في مهب الريح طائرة     لا تستقر على حال من القلق

وقد اثر هذا الاضطراب في حياتها الاقتصادية وكان من اكبر العوامل في استعصاء الازمة المالية القابضة عليها . وما اصدق ذلك عن ازمتنا الروحية ايضاً ! ما اشد اضطراب حياتنا الروحية واعظم ارتباكها ! انها منقسمة القوى، مشتتة النزعات . مثلنا كمثل مركب في بحر

هائج قد ضل سبيله وتحطمت دفته : تتقاذفه الامواج وتتلاعب بـه الرياح ، فيندفع ساعة الى هنـا وساعة الى هناك ، الى ان تأتي الموجة العظمى التي تقلبه رأساً على عقب وتمزقه تمزيقـاً ! وهكذا نحن في بحر هذه الحياة تتجاذبنا ميول مختلفة وغايات متضاربة فنقضي قسطنا من العيش نندفع حيناً وراء هـذه وحيناً وراء تلك الى ان تهب العاصفة الكبرى التي تجتثنا من جذورنا . وكما انـه لا امل للمركب بالنجاة الا بالدفة التي تعين له وجهة مسيره ، كذلك نحن لا امل لنا بالفوز في هذه الحياة الا اذا كانت لنـا غاية سامية نسعى وراءها ، ومثل عليا نلقي عليها مرساتنا ، وهدف اعظم منـا نسخر كل ما في نفسنا من قوى في سبيل تحقيقه ونشر لوائه بين الناس .

هذا الارتباط الوثيق بمثل اعلى ، هذه القوة التي تؤلف مدارك النفس ومشاعرها ، وتوجهها جميعاً الى غاية واحـدة ، وتصهر كل ما ينبعث فيها من اهواء ورغبات في بوتقة الرغبة الوحيدة الكاملة التي لا تتبدل ولا تتزعزع ، هذه هي : «العقيدة» . هل رأيت رجلا يزدري ميوله الشخصية واهواءه الفردية في سبيل ما يعتقد انه الحق ؟ هل سمعت برجل يضحي بماله وراحته ــ بل بحياته ــ لنشر لواء الحرية والعدل ؟ هل أدهشك شخص يحتقر جميع نعم الدنيا للعمل في خدمة بلاده ونهضة امته ؟ هذا ، وذاك ، وذلك ، هم رجال « العقيدة » . هم

قومة الله على ارضه ، واوصياؤه على شعبه . هم قبس من النور العلوي يشع على الناس لينير الظلمات التي تكتنفهم ويهديهم سواء السبيل .

صاحب العقيدة هو العالم الذي يقضي حياته منزويا في مختبره يصارع جراثيم الامراض او يستكشف اسرار الطبيعة لا يبتغي من وراء ذلك اجراً ولا شكوراً . هو الوطني الذي يقف نفسه على خدمة ابناء قومه فيقدم ماله وقواه الجسدية والعقلية قرباناً على مذبحهم . هو المصلح الاجتماعي الذي يهوله ما يرزح اخوانه في البشرية تحت اعبائه من ظلم وعسف ، ومن جهل وفقر ، فيرمي باهدافه الصغرى جانباً ويسعى بكل ما أوتيه من قوة لمحاربة هذه الامراض الاجتماعية التي هي اشد فتكاً بالانسانية من الاوبئة الطبيعية . هو المتصوف العابد الذي ينزه نفسه عن الغايات الشخصية والرغبات المادية ، ويفني شخصيته الصغرى ليبقى في شخصية الكون الكبرى . هو النبي الذي ترتفع عنده العقيدة الى اعلى مستواها وتبلغ اعظم قوتها فتستولي على عقله وقلبه ونفسه وتدفعها جميعاً الى هدف واحد : هو خير الانسانية وسعادتها .

ولا يخيل الى احد ان العقيدة هزة عاطفية تحرك شعور الانسان آناً من الزمن ثم لا تلبث ثورتها ان تهدأ ونارها ان تخمد . لا ! ان

العاطفة التي لا ترتكز على اساس الفكر المتين والتي تتلاشى امام رياح الدهر العاصفة ليست من العقيدة في شيء . وانما العقيدة فكرة تتسرب الى النفس عن طريق العقل ، ولا يتوصل اليها الانسان الا بعد التحليل والتمحيص والدرس والاختبار فلا يفتأ يقلبها ويتدبرها حتى يعتقدها اعتقاداً داخلياً حياً ، وحينذاك يغذيها بعاطفته ويقويها بايمانه ، فيكون لها صلابة الفكر المتين واندفاع العاطفة المتدفقة . وهذا التوفيق الامثل بين العقل والنفس ، بين الفكر والعاطفة ، هو الذي يمد العقيدة بقوتها ويجعل لها ذلك الاثر البليغ في حياة الافراد والشعوب .

وصاحب العقيدة لا يخشى المصاعب ولا يهاب الاعداء . فهو يستمد من مثله الاعلى قوة لا تفتر وحياة لا تنضب . هو الذي اذا تكلم ، تكلم كمن له سلطان . هو الذي يقول لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ، ولا يكون شيء غير ممكن لديه . هو الذي اذا تضافرت عليه المصاعب ، وتألب على مخاصمته الناس ، وقام الذين لم يفهموا رسالته يغرونه بالتنازل عن مبدأه والانصراف الى ما ينصرف اليه بقية القوم من اغراض هذه الحياة ، صد اليأس عن ان يتسرب الى نفسه ، واستمد من مصاعبه ذاتها قوة على قوة ، وسار الى رسالته يؤديها دون نكول او تردد . هو الذي نال الحرية

العظمى ، الحرية الحقيقية ، الحرية التي لا تعرف قيداً ولا رباطاً ، لانه تحرر من جميع القيود الشخصية والروابط المادية ليكون عبداً لما هو اعظم من نفسه الصغيرة واوسع من شخصيته الضيقة . اجل ! ان الحرية الحقيقية لا تكون الا بهذا المعنى من العبودية . فبقدر ما يكون المرء عبداً لما هو اعظم منه ، يصبح حراً في نفسه ، وبقدر ما يفني شخصيته فيما هو اوسع منها ، يبقى البقاء الحقيقي الذي لا تشوبه شائبة ولا يعتريه وهن . وصاحب العقيدة هو الذي يتقبل هذا النوع من العبودية لينال الحرية الحقة ، والذي يفنى هذا الضرب من الفناء ليبقى البقاء الصحيح .

هذه هي العقيدة : تلك القوة التي تعوزنا في هذا الدور من حياتنا القومية ، والتي بدونها لا يمكننا ان نجابه ما يحيط بنا من ازمة روحية . نظرة واحدة الى اية ناحية من نواحي حياتنا القومية : سياسية ام اقتصادية ، اجتماعية ام عقلية ، تظهرنا جميعاً رجالا ونساء ، كباراً وصغاراً ، مقيدين بغاياتنا الضيقة ، مرتبطين باهوائنا الفردية ، متكالبين على المادة ، متنازعين على نعم الحياة الصغرى . فلا عجب اذن اذا سارت احوالنا من سيء الى اسوأ ، بل لا عجب اذا ضعفت شخصيات قادتنا وزعمائنا وانحطت عن المستوى الذي يجب ان تحلق فيه . ولا عجب اذا انتشر الاستياء ، وعم اليأس ، وضاق ذرع

الناس بالحياة، فلو كان لنا مال الارض وعلم السماء ولم تكن لنا عقيدة صحيحة ، فلن ننال الحرية ، ولن نتذوق الكرامة . وقدماً قيل في الكتب : « ان كنت اتكلم بالسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبة فقد صرت نحاساً يطن او صنجاً يرن » ، واليوم ينظر كل منا في نفسه ، وفي ما حوله ، فلا يجد مفراً من القول : « ان كان لي كل ما في هذه الحياة من نعم ، ولم تكن لي عقيدة استثمر هذه النعم في سبيلها ، فحياتي فارغة من المعنى ، خالية من الجوهر ، ولن استطيع ان احظى باستقرار لنفسي او ان اكون نافعاً لامتي وبلادي . »

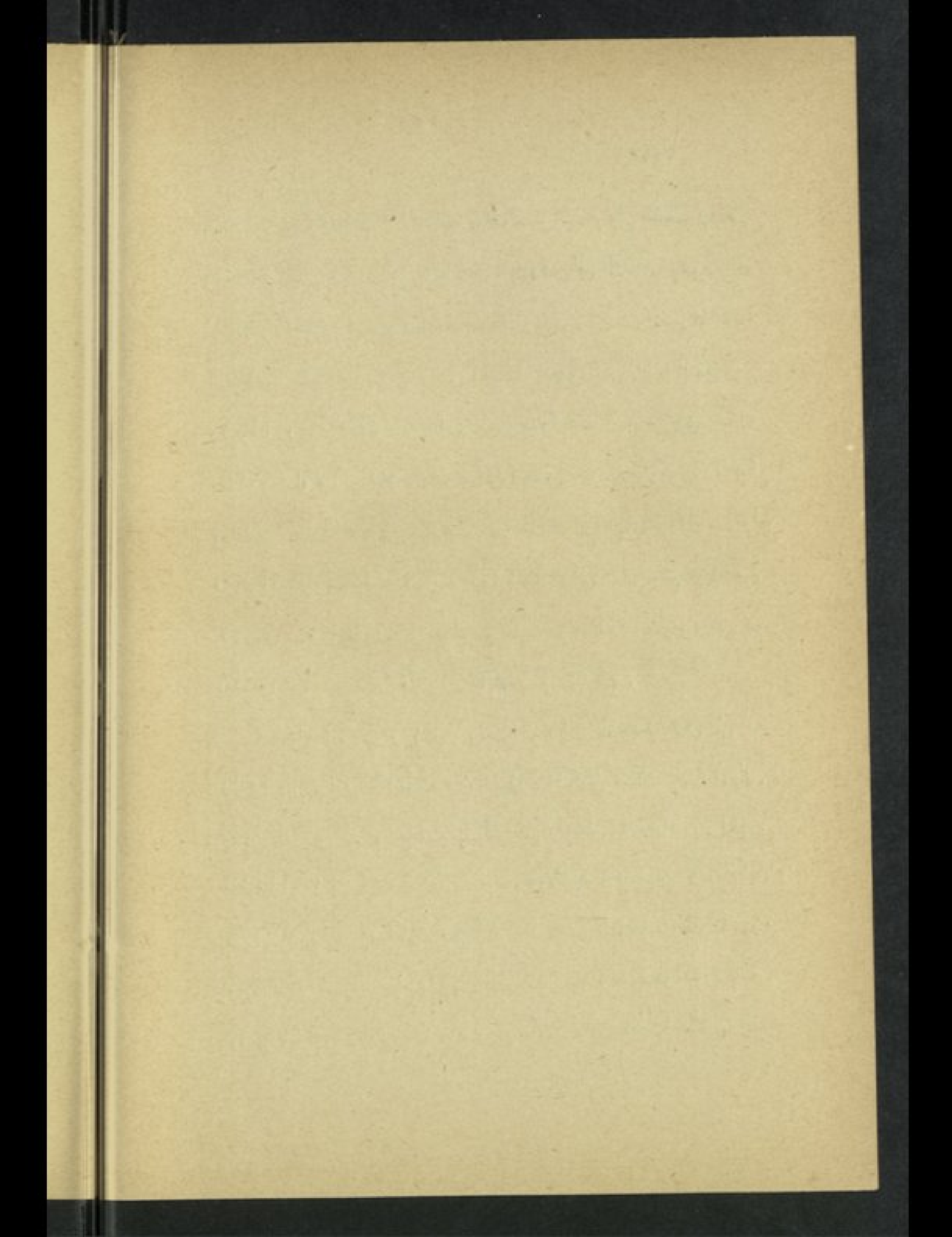
*

ما اكثر ما سمعنا ونسمع ان المادة هي اساس الحياة ، وان الحديث عن النفس والروح ضرب من العبث او نوع من المراء . وما اكثر من ستعلو شفاههم ابتسامة الشك والهزء عند قراءتهم هذا المقال ومتابعتهم حديث « الازمة الروحية » لاعتقادهم ان معضلة امتهم الكبرى هي المشكلة السياسية او الازمة الاقتصادية . فمن الواجب ان اعيد هنا ما ذكرته قبلا من انني من اقل الناس احتقاراً لهاتين المشكلتين وسواهما من مشاكلنا العامة ، ومن اشدهم احساساً بها وتقديراً لها . ولكني اريد ان امكن في نفسي وفي نفس كل عربي تهمه نهضة امته وحياتها ، ان جميع هذه الازمات ما كانت لتبلغ ما

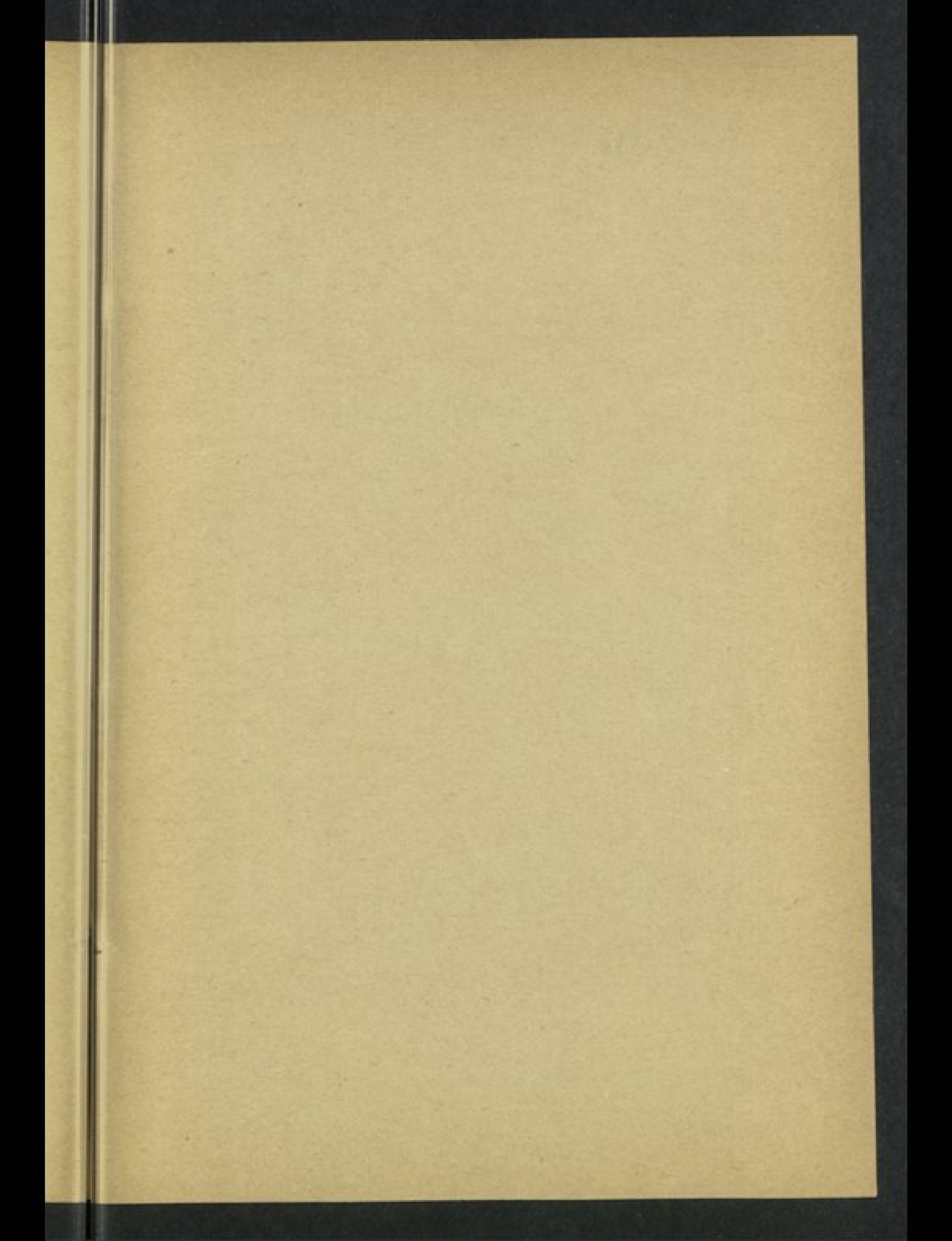
بلغته من شدة وتفاقم الا بسبب ما هوينا اليه من ضعف روحي وتضعضع نفسي ، وان على العاملين الصادقين في الميدان القومي ان لا يقصروا جهودهم على معالجة هذه الازمات ، بل ان ينصرفوا ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، الى احياء العقول ، وتقوية النفوس ، وتنقية الارواح والقلوب . عليهم ان يوسعوا افقنا الروحي حتى يشمل وطننا بكامله فهماً وعملاً ، وان يستغلوا ما في نفوسنا من قوى روحية تستطيع ــ اذا احسن استثمارها ــ ان تحرك الجبال ، وان يدربوا فتيان الامة وفتياتها على ان يتوجهوا بانظارهم الى عمل اعظم من انفسهم يقومون به ويقفون كل ما لديهم عليه ، وبكلمة اخرى ، على ان يكونوا بحق : خدمة فكرة ، واصحاب « عقيدة » .

كان ثيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة يبتهل الى الله قائلا : « اللهم انني لا اسألك حملا خفيفاً ، ولكنني اسألك ظهراً قوياً » . ونحن العرب ، الذين احاطت بنا المشاكل وارهقتنا الاعباء ، لا نطلب تخفيفها او ازالتها ــ لان التخفيف والازالة الحقيقيين لا يكونان بقوة خارجية ــ بل نطلب ظهوراً قوية تستطيع احتمالها ، ونفوساً متينة وارواحاً جبارة تستطيع بذاتها ان تتغلب عليها وتسودها سيادة تامة .

والحق للعزم والارواح ان قويت   سادت وان ضعفت حلت بها الغير



# الجهاد الأكبر



كان النبي العربي الكريم يقول عند الرجوع من الحرب :
« رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر ، جهاد النفس » .
قولٌ يفيض حكمة وعبرة ، ويصدق على كل امة تجاهد جهاداً صحيحاً ،
وترمي الى الغايات المثلى في الحياة . وما اصدقه على الامة العربية
خاصة ، في هذا الدور الخطير من تاريخها ، وهي تهب من رقاد طويل
عميق وتنزع الى اهداف بعيدة ونوع من الحياة جديد . تراها
تتحفز للنهوض ، وتجاهد في شتى الميادين ، ناشدة الحرية والاستقلال
والوحدة ، عاملة على ان تؤمن لنفسها حياة عزيزة مصونة ،
باذلة في سبيل ذلك ما ادخرته على مر العصور من قوى مادية
وروحية لم يتكشف بعد منها الا القليل . هذا الجهاد السياسي
الخارجي ، وما يماشيه من جهاد مادي اقتصادي ، يقوى ويتسع يوماً
بعد يوم ، ويحمل الناظر اليه والمتتبع سيره على الايمان به والتطلع
بثقة واطمئنان الى نجاحه المضمون . غير انه — بالرغم من خطورته ،
ومن ضرورته القصوى لحياتنا الحاضرة والمستقبلة — لا يتم الا اذا
رافقه جهاد آخر اشد واعمق : جهاد داخلي نفسي . فما هو الا كتلك
الحرب التي ذكرها النبي العربي ، جهاد اصغر اذا قورن بجهاد

النفس : الجهاد الاكبر !

اجل! ان امام النفس العربية نضالا داخلياً يفوق نضالها الخارجي عظمة وخطورة . ذلك ان غايتـه ابعد من غاية النضال الخارجي واوسع . فهو يرمي الى تحرير النفس العربية تحريراً تاماً والنهوض بها الى مستواها الارفع وكيانها الامثل . وما الجهاد السياسي الا وسيلة لتلك الغاية البعيدة : فاذا ما عمل على فك القيود الخارجية التي تكبل الامة ، فما ذلك الا ليفسح امامها المجال للتحرر والنمو والتقدم المستمر في الرقي الحقيقي . ويخطئ من يظن ان هذا النضال الخارجي غاية في نفسه ، او انه يضمن وحده سعادة الامة وحريتها الكاملة . فلكم من امة قد تحررت من قيودها الخارجية ولا تزال ترسف في قيود نفسية اشد منها واوثق ، ولا يزال امامها ميدان واسع للجهاد الداخلي قبل ان تحرر نفسها تحريراً تاماً وتحقق غايتها الكبرى .

ولنلاحظ فوق ذلك ان هذا الجهاد النفسي الداخلي ، مع كونه ابعد غاية واوسع مدى من النضال السياسي الخارجي ، هو ، بالوقت نفسه ، عامل جوهري فيه وشرط اساسي لضمان نجاحه . ذلك ان كفاح الامة في الميدان السياسي لا يكتمل الا بقدر ما تكون قد جنت من ثمار الجهاد النفسي ، وما كسبت من الصفات التي يخلقها هذا الجهاد في روح الامة وشخصيتها . وبكلمة اخرى : اننا لا ننال ما نصبو اليه من حرية واستقلال — ولا نتمتع بهما ان نلناهما — الا

بمقدار ما تكون قد نمت في نفوسنا قوى العزم ، والتضحية ، والايمان ، وسواها من الصفات الروحية : وكلها لا تحصل للنفس الا بجهد دائم ، ونضال مستمر .

*

وبعد ، فما هذا الجهاد الداخلي ، والى اية غاية يرمي ؟

الجهاد الداخلي تفاعل مستمر واع بين قوى النفس المختلفة ، بتأثير عوامل المحيط الخارجي ، تتجلى فيه هذه القوى وتنمو ، وترتفع النفس الى المستوى الذي تحقق فيه كيانها الاسمى . فهو عمل لا ينقطع مدى الحياة ، وغايته القصوى قلما تبلغها نفس من النفوس البشرية . على انه بقدر ما تتقدم النفس من هذه الغاية ، وتتصف بالصفات التي تتكون في هذا التقدم ، يقاس الرقي الحقيقي ، وتقدر قيمة الشخصية الانسانية . ومع ان هذه الغاية بعيدة المنال ، والصفات التي تخلق عندها قليلا ما تبرز على وجهها الاكمل ، فانه لزام علينا ان نصور هذه الصفات ونعين تلك الغاية ، كي يتضح لنا على ضوئها جوهر هذا الجهاد الداخلي وحقيقته .

اول الصفات التي تميز النفس المجاهدة هي « النظام » . فالنفس التي اقتطفت ثمار جهادها هي تلك التي تنظمت قواها المختلفة وتناسقت عناصرها المتعددة ، دون تباين او تنافر او اضطراب . نظرة واحدة ينفذ بها كل منا الى داخل نفسه كافية لتظهر ما فيها من فوضى

واضطراب ، وتنازع وارتباك . فهي اشبه بالفناء وقد انتثرت عليه الحجارة المتنوعة، منها بالبناء المنسجم الذي ينم عن شخصية مؤتلفة وكيان موحد . وما هذا الشلل الذي يصيب اكثر اعمالنا الخاصة والعامة ، وما هذا الاستياء ، بل الشقاء ، الذي يتصاعد دوماً من نفوسنا ، سوى نتيجة للتنازع الداخلي المهلك بين قوانا النفسية المتنافرة المتباعدة .

يتجلى هذا النظام النفسي اولا في التفكير . وكلنا يعلم ما للتفكير المنظم من مقام في حياة الانسان ، ورقي الامم . ولعلنا لا نخطئ اذا قلنا ان اصح مقياس لرقي البشرية هو تقدم هذا التفكير المنظم وشيوعه بين الناس . هذا التفكير المتماسك الذي يتمشى بانتظام من المقدمات الى النتائج، والذي يبغي الحق والحق وحده — هذا الاتساق العقلي الذي يسير على هدى وبصيرة بين مجاهل الفكر فيقتحمها دون خوف ولا وجل — هو العامل الاقوى في شق الطريق امام البشرية ، وفي تسليطها على قوى الطبيعة وعناصر الكون . وان من يدرس المدنية الحديثة بامعان ، وينفذ الى اعماقها ، واجد انها ، بجميع مظاهرها المادية والادبية ، قائمة على هذا الاساس الفكري والقاعدة العقلية . فما احوجنا نحن اليوم ، اذا اردنا ان نبني حياتنا على الاسس الصحيحة ، الى اكتساب هذا النوع من

التفكير بحيث يصبح قسماً منا ويصدر عن صميم كياننا . وما احوج هذه النهضة القومية التي تتدفق من نفوسنا وتزخر بها حياتنا الى ان تتخذ من العلم اساساً ، ومن التفكير المنظم دعامة وسنداً ، فتجمع الى العاطفة المتوثبة الفكر الرشيد، وتتغذى من العقل والشعور معاً . وانه لما يؤلمنا ويحز في نفوسنا ، ونحن نرقب حياتنا الثقافية والقومية ، ان نرى اننا لا نزال بعيدين كل البعد عن هذه الغاية ، واننا لم نسر في طريق الانتظام الا خطى قصيرة ، ولم نملك منه سوى عناصره الاولى . راجع ما يلقى على منابرنا من خطب ، وما يحبر في جرائدنا ومجلاتنا من مقالات ، تر انها تكاد تكون خلواً من هذا الطابع العلمي ، وانها ملأى بالتعميمات المطلقة التي يصعب ضبطها ، وبالنتائج المرتبكة التي لم تستوف مقدماتها ، وانها لذلك لا تصلح اساساً لرأي صحيح او عمل مثمر . بل ترانا اسرع ما نكون هرباً من التفكير العلمي المنتظم، وذلك لانه يتطلب جهداً عقلياً لم نتعود بذله : فكل فكر فيه يحتاج الى ضبط ، وكل خطوة تتطلب فحصاً ومراجعة وربطاً وثيقاً بما قبلها وما بعدها ، وكل رأي يجب ان يقلب على شتى وجوهه ، ويحك بمحك الاستنباط المنطقي من ناحية ، والاختبار العملي من ناحية اخرى . وهذا جميعه يستنزف جهداً عقلياً شديداً لا تقوى عليه الا العقول المدربة والنفوس الجلدة .

يضاف الى ذلك اننا نخشى ، اذا سرنا في هـذا الاسلوب العلمي الى نهايته ، ان يكشف عما في نفوسنا من جهل وارتباك وظلام . فالنتائج تتطلب مقدمات قد لا نعرفها ، والظواهر قـد يكون لها بواطن خفيت عنا ، والمطلقات قد تقيدها شروط نجهلها : فلنكتف اذن بترديد ما يخطر لنـا دون تدقيق او تمحيص ، ولنختبئ وراء عباراته المرنة وكلامه المبهم . وهكذا نجد انفسنا ، هرباً ممـا يتطلب الاسلوب العلمي المنظم منا من جهد عقلي وخوفاً مما قد يكشف عنه من جهلنا ، نبتعد عنه ما استطعنا ، ابتعاداً خفياً باطناً ، لانه قل بيننا من شعر بعد بهذا الاسلوب شعوراً واعيـاً ، وفهم شروطـه ومتطلباته وطرق تطبيقه في حياتنا الحاضرة .

ومما يؤسف له ان مدارسنا ومعاهدنا قلما تعنى بتنمية قوى فتياننا وفتياتنا على هـذا الاسلوب العلمي في التفكير ، بل تكتفي بان تلقي عليهم معلومات متنافرة الالوان مختلفة المصادر ، وتحشو ادمغتهم بهـا حشواً . وكانما يعلم ان هـذه المعلومات الخـارجية لا تمس جوهر العقل ، ولا تكيف قوى النفس ، وقـد تهب عليهـا اعاصير الدهر وصروف الزمان فتبددها تبديداً . اما ذلك الاسلوب الفكري الذي صورناه فيختلف عن المعلومات الخارجية المتفرقة في انه لا يلقى من الخارج ، بل يجب ان ينمو من الداخل بنتيجة جهاد شديد متواصل

قد يستمر سنين طوالا . ولا يقدر شدة هذا الجهاد وما يتطلب من اناة وجلد الا من خبره وعاناه وسلك طريقه الشاق الطويل . فليس اذن من قبيل المجاز ، بل ان من جوهر الحقيقة ، ان نقول : ان الاسلوب المنظم في التفكير لا يتأتى الا بنضال داخلي ، وانه من الصفات التي تكتسبها اكتساباً فردياً النفس المكافحة المجاهدة .

ويتبع النظامَ في التفكير النظامُ في العمل . وهنا ايضاً نرى هذه الصفة شرطاً اساسياً لنجاح اي عمل ، خاصاً كان ام عاماً . فلينظر كل منا في عمله ، وليدرس مقدار ما يسوده من دقة وانتظام ! أليس نجد الاستهتار والاهمال والفوضى بارزة في اكثر نواحيه ؟ أليس اننا تعودنا ان لا ننتظر من اي من نعامله ، سيداً كان أم مسوداً ، صاحب حرفة اختصاصية أم مهنة بسيطة ، عملا منتظا في شكله وموعده ؟ ما اقل قيمة الوقت عندنا ! اذا لم يتم العمل المطلوب منا اليوم ، فلا بأس ان يكون غداً ، واذا كان موعدنا الساعة ، فلا ضير علينا ان نأتي بعد ساعة ! وقد يطلب منا عمل بشكل ما ، فنجعله بشكل آخر حسب ما يتفق او يوحى الينا . علة تظهر في اخص امورنا : في حياتنا الشخصية ، ومشاكلنا العائلية ، وتتجلى بصورة واضحة في وظائفنا ومختلف مهننا . وقد يظن البعض منا ان مثل هذه الصفات الفردية قليلة الخطر لا تستحق كل هذا الاهتمام

والنظر ، لكن الواقع ان هذه الامور الصغيرة في ظاهرها كبيرة في باطنها ومغزاهـا ، وان استقلالنا الحقيقي لا يتم الا عندما يصبح عمل احقر عامل من عمالنا ، واصغر موظف من موظفينا منتظما مضبوطاً . فان تحقيق الغايات الكبرى لا يكون الا في نهاية السير ، وبعد بلوغ اول الاهـداف وادناها . ولا يعتقدنّ احد ان هـذا الانتظام هبة تنزل علينا من علُ . انمـا هو صفة نفسية لا تكتسب الا بالجهـاد الداخلي الذي يبدأ في اول العمر ويستمر مدى الحياة .

وليس عدم الانتظام هذا مقتصراً على اعمالنا الخاصة ، بل يتعداه بشكل ظاهر الى مشاريعنا العامة . فالذي ينظر في حالة مؤسساتنـا ، وجمعياتنا ، واحزابنا ، يلاحظ هذه الظاهرة بادية في جميعها ، ويجد ان الرابطة التي يجب ان توحد بين الافراد المشتركين في عمـل من الاعمال مفقودة منها . فهم كالآلة التي يتحرك كل قسم من اقسامها حركته الخاصة دون ارتباط يحكمهـا ويوحدها . ولذا ترانا نفور فورات صاخبة متفرقة ، فنجتمع بعضاً الى بعض ونعمل معاً مدة من الزمن ثم لا تلبث عوامل التفكك والتراخي ان توهن روابطنـا وتفرق شملنا . حالة لم تعد خافية على احد منا . نردد ذكرها ونطيل في وصفها في مجالسنا الخاصة ومحافلنا العامـة ، ونهتف باعلى صوتنـا ناشدين النظـام والتنظيم ، حتى اصبحت هاتان الكلمتان من اسرع

الكلمات الى شفاهنا ، واكثرها ترديداً على السنتنا . ولكن الذي يخفى علينا في اكثر الاحيان هو ما احاول اظهاره في كل كلمة من كلمات هذا المقال من ان النظام ليس لباساً نرتديه ، او مظهراً خارجياً نلقيه على افرادنا وجماعاتنا ، بل هو ميزة نفسية داخلية لا تأتي الا بالمران الطويل والجهاد النفسي المستديم . أرأيتم الى هذه الامم المنظمة في الغرب، وهي تنطق بلسان واحد ، وتسير في صف واحد، وتخضع بجسدها وعقلها وروحها لفكرة واحدة ؟ الحق انها ما كانت لتلتحم هذا الالتحام لولا انها تدربت ، طوال اجيال متتابعة ، على التعاون والانتظام فاختلطا بدمها وروحها ، وجاهد افرادها جهاداً عنيفاً حتى استطاعوا ان يخضعوا اهواءهم الخاصة ومنازعهم الشخصية لرغبة الجماعة التي ينتظمون في سلكها . ولو اننا انتزعنا لانفسنا من هذه الامم الغربية اعظم قادتها اقتداراً واكثرهم معرفة ونفاذاً ، لما استطاعوا ان يخلقوا منا كتلة متراصة ما دمنا لم نظفر ، كل منا في داخله ، بتلك الثمرة المباركة للجهاد النفسي المتواصل .

وقد يخطر للبعض منا ان هذا النظام يجر الى قتل حرية الفرد ، واضاعة مواهبه الشخصية . والجواب ان الامر ان كان قد اصبح معضلة في الغرب ، فهو لا يزال في الشرق العربي بعيداً عن ذلك ، وان عيبنا ليس في الزيادة والافراط ، بل في التفريط والنقصان .

ناهيك بان النظام الذي ننشد ليس القوة التي تخنق الحياة ، بل هو سر القوة والجمال في الحياة . نظرة واحدة الى مظاهر الطبيعة او صور الانسان ، ألسنا نرى النظام والتناسق مصدر كل عظمة وجمال فيها ؟ أليست عظمة الطبيعة في انتظام عوالمها ، من اجرامها الكبرى الى ذراتها الصغرى ، انتظاماً محكماً بديعاً ؟ أليس جمال الموسيقى في تناسق الالحان ، وجوهر العلم في ترابط الافكار ، وصحة الجسم في تماسك الاعضاء ؟ فلنعتبر ذلك ، ولنجتهد في ان ننمي في نفوسنا ذلك الانتظام المحكم الحي الذي هو اساس العظمة ، والصحة ، والجمال .

*

وهكذا تكون هذه الصفة الاولى من صفات النفس المجاهدة مرتبطة بصفة ثانية هي ، كتلك ، ثمرة من ثمار التفاعل النفسي والجهاد الداخلي . هذه الصفة الثانية هي : « الحرية » . وهنا ايضاً لست اعني الحرية الخارجية التي تبذل من فوق ، بل تلك التي تنمو من الداخل ، لا الحرية التي تفسح للمرء مجال الفكر والعمل بتحطيم اغلاله السياسية والاجتماعية فحسب ، بل تلك التي توحي اليه ماهية فكره وعمله بتفكيك قيوده العقلية والروحية ، لا الحرية التي تشق للناس سبل الوصول الى ما يشتهون ، بل تلك التي تعلمهم ماذا يشتهون ،

ذلك ان قيود النفس الداخلية ـ كما قلنا ـ لا تقل عن القيود الخارجية شدة وخطراً ، ولا تتم الحرية الحقيقية الكاملة الا بتفكيكها .

في مقدمة هذه القيود الداخلية : الجهل . فالمرء يظل عبداً لما حوله ما دام يجهله ، فاذا عرفه وفهم اسبابه ونتائجه تحرر منه . وها ان تاريخ المدنية يظهر لنا بوضوح ان الانسان بقي عبداً للطبيعة اجيالا طوالا ، الى ان اخذ يكتشف اسرارها فانقادت له واصبح لها سيداً ومسيرا . ولا يزال الانسان الى اليوم في مناطق عديدة من العالم عبداً للامراض وما سواها من قوى محيطه لانه يجهل نشوءها واحوالها . فكل خطوة جديدة يخطوها العلم تحطم قيداً من قيود الانسان وتحرره منه . فالمعرفة ، اذن ، وجه من وجوه الحرية ، بل هي الحرية الحقيقية نفسها ، لان الجهل هو اقوى قيد يوثق النفس ، ومنه تنشأ جميع القيود الاخرى . وتتضح لنا صفة المعرفة هذه اذا ذكرنا اننا لا نقصد بها تلك المعلومات الخارجية المتفرقة التي نطلي بها اشخاصنا ، بل نعني هيئة روحية تحصل للنفس من استمرار البحث ، واستخراج المجهول من المعلوم ، واشراق نور الحقيقة على الانسان . لذلك نرى في العالم الحقيقي افضل مثال للحرية الصحيحة ، الحرية الخالصة من الاوهام والخرافات ، ومن الاهواء الشخصية والنزعات

الطائشة ، الحرية البريئة من الخوف والجبن ومن الطمع والانانية ، الحرية التي لا يقيدها الا شيء واحد ، تتعلق به فتضحي بكل ما سواه في سبيله . ذلك هو الحق ، الذي عنه قيل في الكتب : « تعرفون الحق ، والحق يحرركم » . غير ان المعرفة التي تخلق هذا النوع من الحرية غاية بعيدة المنال ، محرمة الا على اولئك الذين يدفعون ثمنها غالياً بالجهاد النفسي الذي لا ينقطع ، والعمل الذي لا يمل ولا يتخاذل .

ويصحب الجهل — وبالاحرى ينشأ عنه — قيد آخر ، هو : « التعصب » ، ذلك الذي يربطنا بفئة خاصة او طائفة معينة ، ويفصل بيننا وبين الجماعات الاخرى بحواجز من البغض والكره ، والحسد والضغينة . وهو سبب هذه العصبيات المتنافرة والحزبيات المتناحرة التي تمزق جسم امتنا العربية . فلقد ننال حريتنا السياسية ، ولكنها تبقى واهية الاساس ، معرضة للزوال والانهيار ، اذا لم تكن مدعومة بالتحرر الباطني من العواطف الهدامة الممزقة التي يبعثها التعصب في النفوس . ومن الخطأ ان نعتقد ان هذه العصبيات تزول بالوسائل الخارجية : كالقوانين التي تسنها الدولة ، او الخطب والمقالات الصارخة التي نرسلها بين آن وآخر . انما هي اغلال باطنية لا تحطم الا بالتحرر الذي يسبغه على النفس جهادها الداخلي . ونحن اليوم

اسرع ما نكون في حياتنا الخاصة والعامة الى انكار التعصب وذم الحزبيات العائلية والطائفية والسياسية ، والى الدعوة الى التسامح والاخوة والتضامن بين ابناء الوطن الواحد، ولكن اذا خلا كل منا الى نفسه ، وجد ان صياحه هذا يخرج من لسانه — وما خرج من اللسان ، على ما قال القدماء ، لا يتعدى الآذان — وانه لا تزال في زوايا قلبه اغشية كثيفة من التعصب ، وحجب قاتمة من الحزبية ، تفسد عليه تفكيره وتزيف عمله . فاذا اردنا ان نزيل تلك الاغشية ونرفع هذه الحجب ، وجب علينا ان نحاسب انفسنا محاسبة دقيقة ، وان يقف واحدنا لنفسه بالمرصاد ، فيتفحص كل خطرة تمر في ذهنه ، وكل كلمة تصدر من لسانه ، حتى اذا وجد فيها بقية من ادران التعصب واعلاق التحزب ، نفضها عنها ، وعاد الى عاطفته يصهرها بالارادة القوية ، والوجدان الملتهب ، الى ان تخلص وتنقى وتفيض طهراً وصفاء . ذلكم هو الجهاد !

ومن اثقل القيود الداخلية واشدها وطأة قيد « المادة » . وليس ثمة ضرورة لان اطيل في وصفه او ان اعرضه بتفصيل . فكل ناحية من حياتنا تئن من ضغط هذا القيد الثقيل . وكثيراً ما نتساءل عن الافلاس الخلقي الذي منينا به ، والانحطاط الادبي الذي هوينا اليه ، فنجد ان العامل الاكبر فيهما هو التكالب على المادة ، والسعي

الى كسب المال باية طريقة كانت ، حتى ان واحدنا لا يتردد عن اراقة ماء وجهه ، وبذل شرفه وتضحية خلقه ، في سبيل وظيفة تخلع عليه ، او فتات من المادة يرمي به اولو الامر اليه . ولست انكر ان العوامل الاقتصادية التي تتلاعب بنا ، والتي اضاعت ثروتنا وافقرتنا ، ذات اثر فعال في خلق هذه الحال ، ولكنني اصر على ان سعينا الى المادة لا يقتصر على ارضاء الحاجة ومداواة الفقر ، بل تعدى ذلك حتى اصبح رغبة في المادة من اجل المادة نفسها ، واخل بجميع مقاييسنا ، رافعاً لذة الكسب المادي والشهوة الجسدية فوق كل القيم الادبية والروحية . من هذا نشأ الضعف في النفوس ، والوهن في القلوب ، لان المقيد بنير المادة يظل عبداً لها لا يقوى على تضحيتها في سبيل مثل اعلى . اما الذي تحررت نفسه منها ، فقد اكتسب قوة هائلة لتذليل المصاعب والتغلب على الاحداث . وفي ما نرى بيننا ، وما نسمع عنه في الغرب ، امثلة كثيرة حية لضعف المقيد بالمادة وقوة المتحرر منها ، ملأى بالعظة والعبرة لقوم يعقلون .

ويتصل بقيد « المادة » قيد آخر يشبهه ، هو : « الانانية » . هو شهوة التزعم ، وحب التسلط . هو الرغبة في الذكر البعيد والشهرة الواسعة ، والسعي الى المراكز المقدمة والاعمال الظاهرة . ومن درس تاريخ الامم ، وتابع تقدمها في ميدان الرقي القومي ،

يعلم ان في هذا الميدان متسعاً للاعمال الصامتة والجهد الهادئ ، بل ان هذه الاعمال هي في الغالب ابعد اثراً وانفع للامة من المظاهر الصاخبة . كذلك يظهر لكل مدقق ان اصحاب المراكز الوضيعة هم الذين يضعون اساس البناء القومي . غير ان الانانية تدفع المرء الى الاهتمام باعلى البناء قبل اساسه ، لان الاول ظاهر جلي والثاني كامن خفي ، وتقض مضجعه اذا شعر ان احداً من اخوانه او ابناء وطنه سبقه الى مركز ، او تقدمه في مقام . وبديهي اننا لا نطلب من انفسنا فوق ما يقدر عليه الانسان ، ولا نبغي ان نجرد اشخاصنا من هذه النزعة الفردية التي كان لها نصيب وافر في تقدم المدنية والعمران ، وانما نريد ان نرتفع الى المستوى الذي لا يصح ان تبقى دونه نفوس الشعب الناهض للحياة ، ونطمح الى تنقية هذه النزعة الفردية من شوائب الحسد والطمع والكبرياء ، لتقوم بنصيبها في بناء الامة وانهاض البلاد . على ان هذه التنقية عملية شاقة لا يقوى عليها الا من قدَّر صعوبتها وادرك شروطها ، وكان مستعداً للقيام بما تفرضه عليه من معاناة ومجاهدة ، ومحاسبة للنفس دقيقة .

هذه القيود المختلفة : قيود الجهل ، والتعصب ، والمادة ، والانانية ، وسواها مما يرتبط بها او يتفرع عنها ، توثق النفس الانسانية وتضيق عليها مجال النمو والتقدم ، فتنكمش النفس وتهن ،

ويقل نصيبها من العمل الصحيح والانتاج المثمر بالرغم مما تحدثه احياناً من حركة وما يصدر عنها من جلبة وضوضاء . فاذا ارادت النفس ان تبلغ غايتها وتحقق كيانها ، تحتم عليها تحطيم هذه القيود بالجهاد الداخلي المستمر، واكتساب الصفة الثانية من صفات النفس المجاهدة ، الا وهي : « الحرية » .

*

بقيت صفة ثالثة واخيرة يترتب علينا عرضها لترتسم امامنا صورة صادقة لهذه النفس التي نصبو اليها . بيد انه من الصعب جداً علينا ان نحصر معاني هذه الصفة في كلمة واحدة . ولعل اقرب ما يوحي الينا فكرة عنها ان ندعوها : « الشعور بالمسؤولية » . وهي، على صلتها بالناحية الاخيرة من صفة الحرية التي فصلناها فيما سبق — اي التحرر من الانانية — ، تختلف عنها في انها ايجابية ، بينما ان تلك سلبية ، وفي انها لا تقتصر على التخلص من شعور الفردية فحسب ، بل تتعدى ذلك الى الشعور بتبعة تجاه الجماعة ، والعمل بوحي هذا الشعور . وان في هذا الشعور الايجابي ، والعمل الذي يتولد عنه ، ما يبرر تمييزنا لهذه الصفة من غيرها ، خاصة لامة كالامة العربية طغت عليها روح الفردية ففككتها ، وفي عصر كهذا العصر لم يبق فيه ثمة امل لفرد او امة بالحياة والفلاح الا بالتعاضد والتضامن

والشعور المشترك .

مبعث هـذه الصفة النفسية ان يشعر المرء شعوراً قوياً متواصلاً بالروابط التي تربطه بسواه من الناس، وبالواجب الملقى عليه تجاههم، فيعرف مقامه في عائلته، ومهنته، وبلدته، وامته، وواجباتـه نحو كل منها. ولو اتيح لنا ان نشاهد شخصاً قد تفتحت فيه هذه الصفة وآتت ثمارها، لوجدنا هذا الشعور مالكاً عليه حياتـه، متسلطاً على تفكيره وعمله، منبثقاً منه في كل ساعة من ساعات ليـله ونهاره، يشغله عن الحاجات الصغرى والمسائل الفردية، ويخرج به عن دائرة نفسـه الضيقة وميدان شخصه المحدود .

ويتجسم هذا الشعور في جميع ما يصدر عن صاحب هذه الصفة من فكر، او قول، او عمل . فاذا فكر في امر اخذ له عدته بازالة كل عصبية فكرية مانعة وبأمارة النفس لطلب الحق وحده، ثم تقدم فيه على الطريق العلمي الصحيح، رابطاً النتائج بالمقدمات، والعلل بالمعلولات، ومقلباً المسائل على كل وجه، ومتهيباً كل رأي يتكون عنده او حكم : كل ذلك اعتقاداً منه ان افكاره تتصل اتصالا متيناً بسواه من الناس، وانها قد تكون ذات اثر في حياتهم، فخليق به اذن ان يتدبرها ويهيء لها اسبابها، لا ان يطلق لقواه العقلية العنان لتذهب به حيث تشاء .

وكذلك تكون حاله في ما يصدر عنه من قول . فهو لا يعبر الا عما تكون قد اقرته نفسه الشاعرة بتبعتها من فكر صحيح وحكم سليم ، ويجهد في صوغ هذه الافكار والاحكام بالصيغة التي يفهمها افراد مجتمعه وتكون ابلغ تأثيراً فيهم ، لا بالاسلوب الذي يروق له ، او الذي يقصد منه الدلالة على سعة علمه وغزارة ادبه .

وما كنت لاعلق اهمية خاصة على هذا الشعور بالمسؤولية الذي يجب ان يسود تفكيرنا وتعبيرنا لولا هذا الفيضان من المواد المكتوبة الذي يطغى علينا من صحفنا ومنشوراتنا على انواعها . فلو ان كتابنا شعروا هذا الشعور ، وادركوا خطر الواجب المترتب عليهم ، لاحجموا عن كثير مما ينشئون مما ليس فيه كبير فائدة او غناء . وتزداد خطورة هذا الامر في نفوسنا اذا ذكرنا اننا لسنا نعيش ، كغيرنا من الامم ، في سعة عقلية فيتاح لاي منا ان يقول ما يريد كما يريد ، بل في ازمة فكرية خانقة نحتاج فيها الى كل فكر صحيح ورأي ناضج . ولذا كان من العيب ، بل من الجرم ، ان نبذر قوانا العقلية كما تملي به علينا اهواؤنا ، بدلا من ان ندخرها ونهذبها وننميها لنصرفها في امس ما تتطلبه حياتنا القومية من حاجات هذا الدور العصيب .

وثالث مظاهر هذا الشعور بالمسؤولية بعد الفكر ، والقول ،

هو : العمل . ففي حياتنا القومية حاجات لا تعد ، ومجال للعمل لا يحد ، ونحن بعد في الخطوات الاولى ، وامامنا طريق طويل وشوط بعيد . على كواهلنا اعباء يجب ان ترفع ، وحولنا فقر ومرض وجهل حرية بان تدفع . في البيوت والمدارس ، في التجارة والصناعة والزراعة ، في ميدان الادارة والحكم ، وفي عالم الثقافة والفكر : بل في كل ناحية من نواحي حياتنا ما يدعو الى المعالجة والاصلاح ، والى بذل كل جهد ، من كل فرد من افراد الامة ، لنلحق بمن سبقنا ونبلغ بعض غايتنا . في مثل هذه الحال لا حياة الامة ولا فلاح الا اذا ساد هذا الشعور افرادها وجماعاتها ، فخرجوا الى ميادين العمل المختلفة ، يجاهدون بهمة لا تعرف الملل ، ونشاط لا يداخله فتور او كلل . ومن يراقب حياة الامم المتحضرة ، ير ان عدداً غير قليل من ابنائها لا يكتفي بدائرة حياته الخاصة ، بل يعمل في عائلته ، ومهنته ، وجمعيته ، وحزبه ، مدفوعاً بشعور التبعة الملقاة عليه ، جاداً في محاربة الجهل ، والظلم ، والمرض ، والفقر ، وكل نوع من انواع الخلل والفساد في مجتمعه . ولا نعدو الحق اذا قلنا ان رقي الامة وتقدمها يتوقفان على مقدار قوة هذا الشعور عند افرادها وشيوعه بينهم ، وتمثله في ما يصدر عنهم من قول ، وفكر ، وعمل . ومن هنا تظهر اهمية هذه الصفة الثالثة من صفات النفس المجاهدة : الا

وهي شعورها بالمسؤولية ، وعملها بروح هذا الشعور .

*

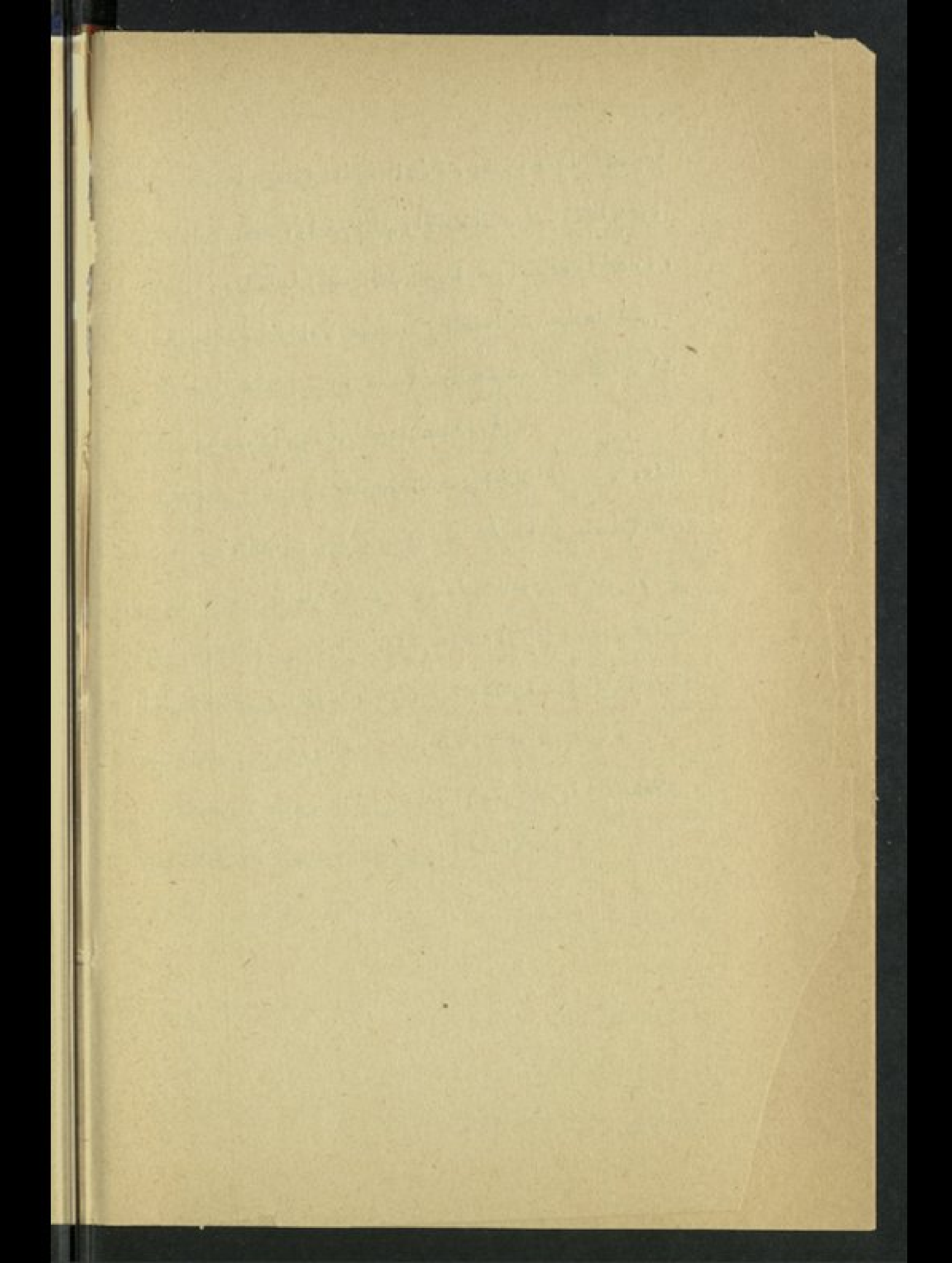
هذه هي ابرز الصفات التي تتحلى بها النفس المجاهدة : «النظام» ، و « الحرية » ، و « الشعور بالمسؤولية» . وهناك غيرها صفات اخرى تظهر عندما تسلك النفس هذا السبيل القويم . غير انها كلها ، على ما يبدو لي ، فروع ومظاهر لهذه الصفات الثلاث الرئيسية . ولست ، باشارتي اليها في كلمتي هذه ، بمبتكر شيئاً جديداً . فقد يكون في كثير مما ذكرت ترديد لما ذكره الكتاب والمفكرون في شتى المناسبات . غير ان الذي اريد ان اؤكده وامكنه في نفسي واراه مؤكداً وممكناً في نفوس جميع ابناء هذه الامة العربية هو ان هذه الصفات ، كالاستقلال ، تؤخذ ولا تعطى : لا توهب من مصدر خارجي ، بل تكتسب بالجهاد الداخلي ، وان هذا الجهاد الداخلي مرتبط لشد الارتباط بجهادنا القومي في سبيل الحرية ، والاستقلال ، والوحدة ، بل هو الاساس الصحيح الذي يبنى عليه ، والعامل الاقوى في نجاحه وبلوغه غايته .

في مطلع نهضة العرب القومية ، هتف بهم صوت زعيمهم وموحدهم داعياً اياهم الى ربط جهادهم في الحرب بالجهاد الاكبر : جهاد النفس . وقد نفذ هذا الدعاء الى صدور العرب ، فجاهدوا

نفوسهم ، ونقوها من ادران المادة والأثرة ، وصهروها بنار التضحية وانكار الذات ، فتحرروا من الذل والاستعباد ، ونشروا ظلهم فوق امم الارض . وما كانوا ليبلغوا تلك الغاية من السيادة والحضارة ، لو لم يكونوا قد سادوا اولا نفوسهم ، واقتطفوا ثمار جهادها المحيي . حتى اذا خمدت هذه الشرارة النفسية ، وانقطع عهد الجهاد ، دكت عروشهم ، وتهدم ما بنوه من مجد وعظمة ورقي .

ونحن العرب اليوم ، وقد ايقظتنا قوى الحياة الجديدة ، ودعانا داعي النهضة والعمل ، خليقون بان نعتبر بالحكمة التي يتضمنها قول النبي العربي ، وان نذكر ان جهادنا القومي لا يبنى الا على اساس الجهاد النفسي ، وانه لا يبلغ هدفه الا اذا تفاعلت قوانا الداخلية وخلقت فينا نفوساً منظمة، حرة ، شاعرة بمسؤوليتها، نفوساً تنعم بما يفيض عن هذه الصفات من قوة ، وسمو ، وجمال .

عندها لا خوف علينا في جهادنا الاصغر للحرية والاستقلال ، لاننا نكون قد كسبنا جهاد النفس : الجهاد الاكبر .



# فهرس

انتهى طبع هذا الكتاب في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٩
في «دار المكشوف»، بيروت

١٩٣

DATE DUE

